بيير جوردا

الرحلة إلى الشرق

رحلة الأدباء الفرنسيين الى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر

ترجمة وتقديم

د. مي عبد الكريم

علي بدر

الأهالي

:

الرحلة إلى الشرق

* الرحلة إلى الشرق
رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر
* بيير جوردا
* ترجمة وتقديم: د. مي عبد الكريم - علي بدر
* الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م

* **الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع**
سورية - دمشق - ص.ب: ٩٥٠٣ - هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩ - فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧
تلكس: ٤١٢٤١٦ - بريد الكتروني: ahali@cyberia.net.lb
* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
* **الأهالي للتوزيع**
سورية - دمشق - ص.ب: ٩٢٢٣ - هاتف: ٢٢١٣٩٦٢
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ - تلكس: ٤١٢٤١٦

ع: ٢٠٠٠/١/٦٣ ١ - ٨٤٨ ف ج و ر ٢ - ٩١٠,٤ ج و ر
٣ - العنوان ٤ - جوردا ٥ - عبد الكريم مكتبة الأسد

بيير جوردا

الرحلة إلى الشرق

رحلة الأدباء الفرنسيين الى البلاد الإسلامية
في القرن التاسع عشر

ترجمة وتقديم

د. مي عبد الكريم

علي بدر

الأهالي

مقدمة الترجمة العربية

هذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القارىء العربي يتكون من خمس فصول مترجمة من كتاب (الغرائبية في الأدب الفرنسي منذ شاتوبريان) لبيير جوردا والكتاب الأصلي يتكون من عشرة فصول، آثرنا ترجمة الفصول التي تخص العالم العربي والإسلامي وتركنا الفصول التي تخص أمريكا وشمال أوروبا والصين واليابان وكوريا والفيلقين أو ما يطلق عليه بالشرق الأقصى.

وأهمية هذا الكتاب من وجهة نظرنا تكمن في كشفه عن المخزون التصوري للأدباء الفرنسيين في القرنين التاسع عشر والعشرين، ورؤيتهم لشرقنا العربي والإسلامي، كما أنه يقوم بعرض واسع لرحلات هؤلاء الأدباء وعملية إدراكهم وفهمهم للشرق وبحثهم عن فك غموضه وإبهامه وعاداته وعقلياته ضمن اللغة والتاريخ والخطابة الغربية وعمليات التماحك الديني.

فضلاً عن ذلك يزودنا هذا الكتاب بمادة أثنوغرافية غزيرة عن حياة وعادات شعبنا العربي وشعوبنا الإسلامية في الشرق في فضاء القرن التاسع عشر، ولإدراكنا صعوبة توفر هذه الرحلات بين يدي القارىء العربي (حيث اعتمد الكاتب على أكثر من مائة رحلة ورواية تخصّ الشرق العربي الإسلامي) آثرنا ترجمة هذه الفصول التي تمدنا بمادة ممتعة كتبت بأسلوب شيق وتناولت مساحة جغرافية واسعة من آسيا الصغرى إلى سورية ومن مصر إلى الجزائر ومن تونس إلى المغرب.

في الواقع لم يعتمد بيير جوردا على أدب الرحلات وحسب إنما على الروايات والقصائد التي تناولت الشرق، والتي شكلت نوعاً من الاستمرارية المنظمة لما يطلق عليه عادة بالاستشراق، وهي المعرفة الغزيرة بالشرق ووصفه وإعادة توزيعه وتشكيله ضمن فروع الدراسة العلمية، وإن كان الاهتمام ينصب عادة بالبحث عن الغرائبية فإن الكاتب تناول بشكل متسامح مقام الشرق وحياته وعاداته وجغرافيته وثقافته كما ظهرت في الأدب الفرنسي، ولا يدخر جهداً أحياناً من النقد والتقويم والسخرية من الرؤية المبالغ بها أو الرؤية الخيالية للرحالة الأدباء ولا سيما الرومانتيكيين منهم، حيث أطلق عليهم بالمبرأين من السحر.

حيث يظهر لنا الشرق بشكل جلي كضرورة من ضرورات الخيال، وإن العلاقة بين الشرق والغرب ليست علاقة بريئة إنما علاقة من علاقات القوة والسلطة والسيطرة وبدرجات متناقضة من الهيمنة المعقدة والمتشابكة.

لقد كان الهم الأساس الذي يوجه الرحالة ويصوغ عمله هو عملية النقل المنظم والمباشر للصورة المخالفة والمعارضة للثقافة التي أنتجته، أي نقل المشاهد والحالات التي لم يألفها، والغريبة عليه في الإطار التصويري الاجتماعي والسياسي لثقافته، وإن عملية النقل بحد ذاتها لا يمكنها أن تكون حالية من التأويل أو التمثيل الذي يجد مبرره في نظام من التعسف، والتحيز، أو الإسقاط الذي يسير على وفق سلسلة من العناصر هي باختصار:

إما إزاحة العناصر المتقاربة بين الثقافتين - الثقافة المهيمنة والثقافة المهيمن عليها - أو محاولة التقاط العناصر المتباعدة وحسب، أي بالبحث الحثيث لإيجاد نقاط التعارض والاختلاف، وهذه الأخيرة هي إحدى الوسائل

الضرورية لعملية الكشف والفحص، ومنح الصورة التقريبية عن الآخر.

إذن يخضع مفهوم الآخرية في أدب الرحلات الغربي، إلى عملية إستبناء وهي عملية ديناميكية تعمل بصورة تلقائية، وبشكل متبادل، فإما أن تكون صورة الآخر مبنية بشكل قبلي داخل اللاوعي الجمعي للثقافة، وهي صورة فورية كونتها عناصر تاريخية واجتماعية وسياسية متعاقبة، وإما صورة تقوم على أساس اختيار العناصر المطابقة للعناصر القبلية ومحاولة تقريبها وفرضها بالقوة ضمن نظام بلاغي يصبح أن نطلق عليه بالخطاب، أو على الأقل هو (خطاب الرحلة).

إن الكشف الجغرافي الذي يؤدي إلى اكتساب معرفة الآخر (وهي معرفة امتيازية بطبيعة الأمر) وتوصيف لغته وحياته وتقاليده يؤدي بالرحالة إلى تقديم مادة إثنوغرافية مهمة، تقوم بالأساس على قاعدة المقارنة بين النظم الاجتماعية والثقافية والسياسية المختلفة، بيد أن المقارنة تقر بالنتيجة رجحان كفة النظام الذي ينتجها، أي رجحان كفة النظام الذي يصوغه الرحالة لنفسه، وهو النظام ذاته الذي يصوغه هو في آن واحد، أي أنهم يصنعون النظام الذي يصنعهم على حد تعبير فيكو.

لم تكن رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية، في واقع الأمر، هي الوحيدة في التاريخ، إنما كان هنالك على الدوام رحالة من مختلف البلدان والأقاليم وعلى مدى التاريخ يجوبون أراض شاسعة، ويقطعون مسافات بعيدة، من أجل تقديم معرفة ناجزة عن الآخر، وطرح فكرة التنوع من النواحي الثقافية واللغوية والسلالية والدينية بين مختلف الحضارات، وربما فاقت الكثير من الحضارات الحضارة الأوروبية في هذا الميدان، إلا أن الرحلات الأوروبية في واقع الأمر فاقت كل الرحلات التي أنجزت في الحضارات الأخرى بأمرين، الأول:

ضخامة المدونة التي أنتجها الرحالة الأوروبيون خلال رحلاتهم، من كتب أدب رحلات، ويوميات، ومذكرات، وقصص، وقصائد إنتاج أدبي، وغير أدبي مثل (الأبحاث السيوسيولوجية والسياسية والأثنوغرافية).

والأمر الآخر هو سريان هذا الإنتاج الأدبي والثقافي، وتداوله وقبوله وإعادة إنتاجه داخل الثقافة، فقد شكلت هذه المعرفة الخابرة بالشعوب الأخرى نوعاً من السلطة، وقد فرضت هذه المعرفة المقدمة عبر الرحلات صورة نمطية ثابتة داخل الثقافة، وربما كان لهذه الصورة من الفعالية والسريان بحيث تصبح سلطة شرعية تقوم على أساسها إطروحات سياسية وتحليلات اجتماعية، ويكون لها لقدرة على إبراز إنتاج ثقافي، أو أن يتأسس عليها إنتاج ثقافي آخر. فأدب الرحلات هو نوع من المعاينة والفحص والاختبار أو الأخبار والتقصي، وتؤدي حتى الفصلات المتخلية منه دور شاهد العدل، ومن هنا تتأتى خطورتها ولا سيما حين تتسم هذه الرحلات بالعفوية، والسطحية، والتحيز، لأنها تشكل عنصراً من عناصر رد الفعل الدفاعي لدى بعض الثقافات بإزاء ثقافات غيرها.

إن المسألة الهامة التي يجدر بنا ذكرها، هي أن أدب الرحلات يتبع في غالب الأمر بصورة جدلية طابع العلاقات السياسية بين الثقافات المختلفة، كما يتبع الرحالة توجهه الأيديولوجي والديني ودوره ومهمته في الرحلة، إذن يمكننا أن نميز يوميات البشر عن مذكرات الجندي، ومذكرات السياسي عن يوميات الأديب، وفيما يخص رحلات الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر، يمكننا أن نميز قضيتين هامتين: الأولى: أنه إنتاج قام به بشكل حصري أدباء رومانتيكيون كبار، مثل لامارتين، نرفال، غوتييه، فلوبير، ديديه، ماكسم جوكومب، وقد أثر الطابع البلاغي والتخييلي في عملية النقل تأثيراً مباشراً، كما يمكننا التمييز

بين رحلتين مثل رحلة فلوبير ورحلة لامارتين على أساس العلاقة بين من كل منهما من جهة وبين الرومانتيكية (كمدرسة أدبية ووجهة نظر أيديولوجية فلسفية) من جهة أخرى ففي الوقت الذي كان ينهل لامارتين من الرومانتيكية كل ما يهيئه للنظر إلى الشرق، كانت رحلة فلوبير تتأسس على قاعدة عدوانية بإزاء الشرق، لأنه كان يريد أن يشفى من أمراضه الرومانتيكية، والنقطة الأخرى التي يجدر بنا ذكرها، هي أننا لا يمكننا فصل الرحلات عن طابع العلاقات المتأزم بين الشرق والغرب في القرن التاسع عشر، وتأثير المماحكات الدينية، والأطماع الاستعمارية، وسياسية التبشير الديني، ولذلك نجدها (هذه الرحلات) تحتوي على الكثير من الانطباعات السياسية، والأحكام التقويمية التي تفتقر في أغلب الأحيان - نتيجة لصعود الشعور الغربي بالتمركز العرقي والديني وإلى الحس الاثنوغرافي.

يشكل القرن التاسع عشر قرن الرحلات بلا منازع، بل إنه القرن الذي يضم أكبر عدد من الإنتاج الثقافي والأدبي الذي يرتكز بالأساس على يوميات الرحلة ومخاطرها، وإن كانت هناك رحلات سبقت هذا الزمن بكثير، إلا أنها لم تكن معبأة بهذا القدر من الإنتاج المكتوب لأسباب عديدة سنذكرها لاحقاً، علينا أن نؤشر: أولاً أن رحلة ماركو بولو في القرن الثالث عشر كانت نوعاً من كشف المجاهل التي أحاطت بأوروبا ذلك الزمان، لكنها وإن اتبعت بصورة واضحة الاتجاه العقلي لأوروبا في العصور الوسطى (أي التمركز الذاتي حول الدين) إلا أنها ساهمت بإزالة بعض عوائق الفهم والتفسير الخاطئ للثقافات التي أنكرتها أوروبا والتي وسمتها بالبربرية، والتي لم تجدها سوى شعوب تحمل معها الذعر والدمار أينما حلت، وقد مدت هذه الرحلة نوعاً من النظام وهو النظام الوصفي الاجتماعي والاثنوغرافي الذي لم تتحرر منه

أية رحلة فيما بعد، كما أن ماركو بولو هو الذي دفع الكشوفات الجغرافية خطوة، وحاول فتح المغالق والمجاهل الأرضية التي كانت تحيط بأوروبا مثل ظلام مطبق، فقد قدمت هذه الرحلة إلى القارىء الغربي حضارة الاختلاف، الحضارة التي تختلف عن الحضارة الأوروبية كلياً من جهة، ومن جهة أخرى قدمت له مجالاً خصباً للخيال بالمناطق التي حلم بها وهي المناطق الدافئة بأنهارها العظيمة وبمراكبها التي لا تحصى، ولكن في حدود ونطاق العقلية الدينية لأوروبا القرون الوسطى، وربما تحتل الغيلان التي تنادي بالليل على من يتخلف عن القافلة، مكاناً بارزاً في رحلة ماركو بولو. مع ذلك أثبتت هذه الرحلة للأوروبيين أن الشعوب الأخرى هي ليست شعوباً منحطة عن النوع الإنساني، إنما شعوب تمتلك ما لا تمتلكه أوروبا من الوفرة المالية والرخاء ولذلك اتهمته الكنيسة بالكذب وطلبت منه وهو على فراش الموت أن ينكر ما رآه، وسواء أأنكر ماركو بولو أم لم ينكر ما رآه في رحلته، لم يعد لا نكران الرحلة ولا إثباتها هو العامل الحاسم في هذا الأمر، إنما ما قامت به من عملية تهديم لكل ما كان يحيط بأوروبا آنذاك، وقد أثبتت أن أوروبا ليست هي مركز العالم ولا ديانتها هي الوحيدة.

وإن توالت رحلات أخرى ـ بشكل متقطع ـ بعد رحلة ماركو بولو مثل رحلة فاسكو ديجاما، وكرستوفر كولومبوس، من أجل اقتحام الجسور والأسوار الجغرافية للعالم الآخر، وشق الطرق وكشف المجاهيل، إلا أن القرن السابع عشر يحظى بالأهمية الكبرى، لأنه القرن الذي قنطر بالفعل الهوة بين الشرق والغرب. وبعيداً عن الحروب الصليبية، وما نقله الجنود والرهبان من تصورات عن العالم الإسلامي إلى أوروبا، نجد أن الشرق أصبح يحظى بأهمية كبيرة منذ القرن السابع عشر فكانت رحلات القساوسة الكبوشيين المعارضين للإصلاح، وهم من أتباع الأب جوزيف،

والذين ساحوا في الأراضي الشاسعة للإمبراطورية العثمانية بحثاً عن المخطوطات، التي تثبت عقيدتهم، فكان دافعهم الأول الاحتياز أو وضع اليد على التراث البيزنطي وهو التراث الوريث للحضارتين الرومانية والإغريقية (فكان عصر الأنوار الغربي يحث مريديه للبحث في الشرق عن المخطوطات التي تجلي شكوكهم عن الفلسفات الإغريقية واللاتينية في بيزنطة) وقد رافقها بطبيعة الحال تطور العلاقات الدبلوماسية والسياسية مع الوالي العثماني وانتعاش التبادل التجاري والبحري مع العالم الإسلامي نتيجة لسياسة كوبرت، وكان لهذه العلاقات أهمية كبيرة في توسيع نقاط الاجتياح المنظم الثقافي من جهة، والكولنيالي من جهة أخرى وهذا ما جعل الملك لويس الرابع عشر يرسل مبعوثيه إلى الإمبراطورية الإسلامية مثل (تافرنية، تيفنو، شاردان، بول لوكاش) وذلك لتعميق العلاقات السياسية والثقافية بين فرنسا والعالم الإسلامي، وقد صاغت هذه التصورات أو ساهمت في صياغة إنتاج ثقافي ضخم وواسع في الثقافة الغربية نطلق عليه بالاستشراق، وهو المعرفة الخابرة بالشرق وتوصيفه وتحليله وتقديمه إلى ثقافتها، وربما أسهمت ترجمة الليالي العربية إلى اللغة الفرنسية في إثراء، أكثر مما أسهمت في إنهاء، القرن العظيم للاستشراق على حد تعبير كلود برشيه، فقد ساهمت (ألف ليلة وليلة) في القرن الثامن عشر مساهمة فعالة في عملية إدخال العناصر الانتروبولوجية في تحليلها للمظاهر السياسية والاجتماعية للثقافة، فالرسائل الفارسية لمونتسكيو، ورواية صادق لفولتير، ورواية صفية لكريون، ومذكرات السراي لدوشامب، وحاجي بابا لمونتريون، ورقصة علي خان لمسترودو لاتور، تحاول أن تقلد النظام الاجتماعي والانتربولوجي لليالي العربية وذلك في تحليل المظاهر السياسية والاجتماعية لأوروبا القرن الثامن عشر، وإن كان الشرق الذي خلقه الغرب في أدبه، ليس شرقاً حقيقياً وهذا ما

أنتبه إليه غير واحد من الكتاب - إنما كان منطقة لتصعيد الخيال الغربي عبر القرون المختلفة، ووسيلة لتفجير صورة ثابتة منمطة، والتعامل معها، إلا أنه يكشف عن المخزون التصوري الكائن في النظام الذي يشكل الثقافة الغربية ذاتها، فالشرق هو ملجأ للكائنات الغريبة والشبحية، وهو صورة ثابتة خلقها المخيال الثقافي السياسي الغربي، نتيجة لقرون محتدمة من الصراع والمقاومة والمجادلة، وربما تفجرت بشكل أساسي في القرن الثامن عشر، إلا أننا نجد أن القرن التاسع عشر هو محاولة لفحص هذه المادة ولامتحان واختبار هذه الصورة بوساطة الرحلة، ولذا فإن الأدباء الذين انتبهوا إلى هذه الهوة الفاصلة بين المخزون التصوري للشرق والشرق ذاته، أطلق عليهم بالمبرأين من السحر، وربما أعاد أدورد سعيد وتييري هنتش هذه الأطروحة في (الاستشراق) و(الشرق الخيالي)[1]، حيث رأى هنتش أن الشرق في الخيال الغربي لا ينتمي إلى الشرق وإنما إلى الغرب، وأن الشرق غير موجود إلا في عقول الغربيين، وقد أعيد إنتاجه داخل الثقافة الغربية بواسطة الفن لذا فهو شرق فني لا واقعي على الإطلاق.

إن شاتوبريان هو نقطة الوصل في تدشين نظام جديد من الصلات فقد حققت رحلته قطيعة مع الرحلات السابقة لها، كما أنها كانت الباعث والمؤثر الذي تمظهرت عنه الرحلات التي تلتها، لقد كانت رحلات القرن التاسع عشر تتجاوز بمراحل عديدة ما كانت عليه الرحلة قبل صدور كتاب شاتوبريان (الطريق من باريس إلى أورشليم) وتختلف عنها إختلافاً بيناً. كانت هنالك معرفة بالشرق معرفة كتابية في واقع الحال لجغرافيا التوراة حتى قبل صدور كتاب الرحلة لشاتوبريان، كما كانت هنالك معرفة بجغرافيا الإسلام المتاخمة للجغرافيا التوراتية، بل تقع فوقها كما كانت هنالك معرفة لسانية باللغات السامية التي تشكل العربية واحدة منها، بل إن اللغة العربية (وهي اللغة الطقسية للإسلام على حد تعبير

لويس ماسنيون) هي المنازع الوحيد للغات الأوروبية من الجانبين الفكري والفلسفي، وقد أدرك الغرب بشكل حاسم أن حضارة الإغريق، لولا العربية لأصبحت حجاراً أو فخاراً. كما كانت هنالك الرشدية العربية التي عممت بشكل حاسم ما يفهمه الغرب اليوم من النزعة العقلانية. إذن لم يهبط الشرق على الغرب، على يد الرومانتيكيين، مثل إلهام مفاجيء لكن هذه المعرفة أخذت على يدهم بعداً جديداً، بعداً آخر، غير البعد الذي عرفه الغرب عن الثقافة والجغرافيا العربية والإسلامية، فقد اخترع الرومانتيكيون في رحلاتهم المعنى المزدوج للرحلة، وهو الاكتشاف من جهة والتخيل من جهة أخرى، ومن الجدير بالذكر أن (الشرق) كان يتحدد نسبة إلى الأدب الغربي بالمكان الذي يحتله الإسلام، والعالم العربي، أما الشرق الأقصى مثل الصين واليابان وتايوان وكوريا، وإن كان مسرحاً لرحلات كل من (ديديه، لوتي، فرومنتان، الذي كونت أفريقيا بشكل خاص جزءاً كبيراً من رحلاته) إلا أنه شرق مسالم شرق نائم حتى منتصف القرن الحالي، إذ لم يدخر الغرب (وهذا واقع الحال) أي عداء سجالي إلى هذه المنطقة، بالمعنى المعروف لدينا عن عدائه لمنطقة الشرق المتوسط، فقد أحتفظ الغرب بعداء وتهديد مقلق على مدى اكتشافه للثقافة العربية الإسلامية، وهذا ناتج بطبيعة الحال عن الاختلاف الحضاري الجوهري والديني، ومركز الثقل الذي يشكله شرقنا المتوسط، فلا أفريقيا ولا آسيا تشكل تهديداً دينياً، ولا ثقافياً للغرب بشكل حقيقي، إنما منافس أوروبا الحقيقي وصورتها المقلوبة، هي الثقافة العربية الإسلامية لذلك نواجه صلفاً عنصرياً واضحاً في الرحلات المكتوبة في القرنين التاسع عشر والعشرين، لأن هذين القرنين هما قرنا التصادم الثقافي والحضاري بامتياز، هما قرنا الزحف الكولينالي على الشرق، وتدبره ثقافياً وضمه جغرافياً، وقد منح الرحالة في القرن التاسع عشر لمفهوم (الرحلة إلى الشرق

(voyage en orient) بعداً دلالياً جديداً وهو المعنى الايديولوجي، الذي يتضايف مع المعنى الانثروبولوجي، فمفردة شرق كانت تشير نسبة إلى الانسلكوبيديين الفرنسيين إلى مفاهيم فلكية أكثر مما تشير إلى مفاهيم انتروبولوجية، وكانت كلمة ملتبسة بحق، فديدرو كان لا يفهمها إلا بوصفها بيزنطة، أو فلسفية غنوصية، أو زرادشتية! وكانت تمثل لديه ما يمثله التراث الإشراقي والصوفي معاً، وهذا ما جعل واحدة من المعاجم الشهيرة في القرن التاسع عشر (بواكير القرن التاسع عشر) تكرس عموداً كاملاً لتفسير الالتباس الذي تضمه كلمة (Orient)، وقد ذكر المعجم ذاته وهو معجم لاروس أنه ليس هنالك من كلمة فسرت بشكل سيء تضارع ما كان لكلمة شرق. لذا كان الرحالة حتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر لا يعنونون رحلاتهم ب(رحلة إلى الشرق) على الإطلاق إنما كانوا يعنونها باسم البلد الذي يجتازونه وقد شاعت عناوين رحلاتهم باسم البلد الذي يرحلون إليه مثل (رحلة إلى مصر)، (رحلة إلى فلسطين)، (رحلة إلى سورية) أو كانت تحمل الرحلات اسماً تجارياً مثل (levant) والتي تعني الشرق بالمعنى التجاري أطلقه التجار على المناطق الشرقية المتاخمة لحوض البحر المتوسط، ولم تظهر في الأدب الفرنسي عبارة (الرحلة إلى الشرق voyage en orient) إلا في العام ١٨٣٥ على يد لامارتين في كتابه (ذكريات، انطباعات، أفكار، ومشاهد مقدمة من خلال (رحلة إلى الشرق) وفي تتبع جميل لكلود برشيه في كتابه (انطولوجيا الرحلات إلى الشرق)[٢] ذكر أن هذا المصطلح كان ترجمة عن كتاب صادر في العام ١٧٧٢ للرحالة الإنكليزي (بيكوك) كان قد أنجزه بين العامين ١٧٣٤ ـ ١٧٥٤ وقد أخذه قبل لامارتين الرحالة فونتانيه في العام ١٨٢٩، ولكنه أخذه تحت الاسم الجمع، ولم يأخذ العنوان شكله بالمفرد إلا على يد لامارتين، وهكذا تحول هذا العنوان إلى اسم عام

وجامع، يعرف الشرق بجميع المناطق الواقعة تحت الحكم العثماني، من ضمنها بلاد الإغريق باستثناء بلاد ما بين النهرين ومنطقة البلقان.

قام الرحالة الفرنسيون بجهد كبير في القرن التاسع عشر، من أجل الكشف عن المناطق غير المأهولة وكانت رحلاتهم لا تخلو من مخاطر، فكانت عوائق الطرق والرياح والعاصفة وصعوبة شق الكثبان الرملية والجبال الوعرة، كما كانت هناك أخطار قطاع الطرق وأخطار الأمراض القاتلة (مات كل فريق الرحلة الذي رافق نيبور بمرض الملاريا في القرن الثامن عشر) وكانت حركة الرحالة المتوحدين بطيئة، وكانوا بحاجة إلى حجج قوية للذهاب إلى الشرق وكانت تتطلب رحلاتهم مبالغ طائلة وإسناد دبلوماسي، فقد كلفت رحلة فونيني، إرثاً بأكمله، كما كلفت رحلة شاتوبريان خمسين ألف فرنك، وليس بأقل من هذا المبلغ كلفت رحلة لامارتين.

إن تطور ماكنة البخار هو الذي سهل ظروف النقل البحري، في المتوسط مما مكن الرحالة على التنقل بسهولة بين شمال البحر وجنوبه، وساعد على استتباب الأمن في البحر، وقلل من مخاطر القرصنة البحرية، كما كان هنالك عاملان رئيسان ساهما في تسهيل مهمة الرحالة، يجدر بنا ذكرهما: وقف الأعمال العدائية بين تركيا واليونان، وهيمنة فرنسا كلياً على الجزائر في ربيع العام ١٨٣٣، فقد رحل فرنسوا الأول مع خمسين مسافراً تم اختيارهم في جولة تجريبية عبر البحار، ثم حلوا ضيوفاً على ملك اليونان اوتون إبان ذاك، وكانت شركة ليولد النمساوية وقد دشنت عهداً بحرياً جديداً، وذلك بإنشائها خطوطاً دورية ولا سيما خطوط الخدمة البريدية، فكان هناك خط مارسيليا ـ أوترست ـ سميرن ـ اسطنبول، وخط الاسكندرية ـ لوبيرة) مما جعل الصلات المنتظمة بعد العام ١٨٤٠ تنشأ بين

اسطنبول وبيروت، بواسطة سميرن ورودس وقبرص، ويشير كلود برشيه في كتابه آنف الذكر، إلى إمكانية ركوب سفينة تقطع المسافة بين اسطنبول وجملك في ست ساعات، ثم تطورت منذ منتصف القرن التاسع عشر، خطوط السكك الحديدية، ونالت تعاظماً متسارعاً في الشرق وقد ظهرت السكك الحديدية في سوريا في وقت لاحق، ويذكر بريشه إن فوغويه اضطر في العام ١٨٧٢ أن يستقل عربة القطار للذهاب من بيروت إلى دمشق، مما شكل ذلك الأمر تقدماً كبيراً ودفعاً للرحلات وتعاظمها.

يحوي كتاب بيير جوردا الذي نقدمه للقارىء العربي مساحة واسعة وجذابة من هذه الرحلات وفصلات مشوقة لما قام به الأدباء الفرنسيون في القرن التاسع عشر لشرقنا العربي والإسلامي، مثل شاتوبريان، لامارتين، فلوبير، نرفال، غوتيه ديديه لوتي وغيرهم، كما نجد عرضاً جذاباً للشرق الذي كان يمثل للرومانتكيين منطقة لتصعيد الخيال، منطقة للكائنات الغريبة بأجوائها المرمنسة(*) بالشمس الحارقة، وقوافل الجمال والمشاهد الصحراوية الجذابة، كما أنها من جهة أخرى منطقة للاختلاف البيئي والاجتماعي والانثربولوجي، وتتحدد هذه الرحلات من الناحية العملية بالإطار النخبوي والسياسي والديني والأدبي، وبإطار العلاقات المحتدمة للصراع الإمبراطوري التوسعي، والصراع الديني النقائضي.

إن أهمية هذا الكتاب تكمن في ما يكشفه لنا من مستويات الرؤيا الغربية للآخر، ومستوى الحياة البيئية والاجتماعية لشعوبنا الإسلامية، وشعبنا العربي في القرن التاسع عشر، كما يكشف الكتاب الاختلاف بين الرحالة ودافع كل منهم في الرحلة: بيين شاتوبريان الذي يبحث عن عبقريته الدينية، وتفوقه العرقي وأنانيته الشاعرة المتسامية، وبين لامارتين

الذي يبحث عن آثار الله المرسومة على الشرق، والذي كان يتحرق وهو في مارسيليا للإبحار على محيط الرمل والاهتزاز المخدر في مركبة الصحراء، من أجل أن يحلم أحلام يعقوب في ظل الضجة العذبة للنجوم النابضة، يكتشف عن الاختلاف بين الرؤية العرقية للتفوقية لغوبينو (الذي عده كلوديفي شتراوس أباً للنظريات العرقية) وبين بيير لوتي الذي كان وصفه للإسلام وصفاً دالاً ومكملاً بعيداً عن الوصف الغائي العنصري.

يحتوي هذا الكتاب على مادة مهمة وغزيرة من رحلات الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية وكان اهتمام المؤلف بيير جوردا ينصب على البحث عن الغرائبية (الاكزوتية) التي بحث عنها هؤلاء الكتاب في رحلاتهم إلا أنه في الوقت ذاته عرض لمادة أخرى مهمة من اهتمامات الرحالة وصناعتهم للصورة التمثيلية للشرق، وبين مقدار الوهم الذي انجلى عن هؤلاء الكتاب في زيارتهم للشرق، وبرهن بطرق مختلفة عن الخصائص المتواترة، والمفاهيم التي شكلت طقماً من الأفكار القادرة على التنقل من رحالة إلى رحالة.

كما يمكننا أن نلمس من خلال تعاقب الفصول الخمسة - الرحلة إلى البلاد الإسلامية - الرحلة إلى الجزائر - الرحلة إلى مصر - أدب المستعمرات - رحلة إلى بلاد فارس والبلاد الشرقية - صورة عن الشرق قد أبتناها العرب في تناميه المتلاحق وتاريخه، كما يمكننا أن نحدد الدرجة التي تعرضت لها هذه الصورة من الصقل والتشذيب والمعالجة، في المجال الحي للمعرفة الغربية وهو المجال الخصب لتنامي الخيال الغربي، الذي أضفى شكلاً ومعنى على التجربة الشرقية.

فمصر والجزائر والمغرب وسوريا وآسيا الصغرى والصحراء الغربية وبلاد فارس، هي مساحة غامضة وجذابة تعزز الفروق الناتجة بين جنسين من

البشر: الأول هو الذي ينظر ويراقب، وهو غني أشقر ومسلح، والآخر العربي أو المسلم وهو المراقب الذي يهم الغربي فحصه وتمثيله وتقديمه بوصفه صورة غرائبية للقارىء الغربي المستريح في أوروبا، والذي يطلب ما يسليه من الذين يذهبون إلى الشرق.

الهوامش:

١ ـ الشرق الخيالي، تييري هنتش، منشورات منوه، باريس، ١٩٨٨

٢ ـ أنطولوجيا الرحلات إلى الشرق، كلود برشيه، روبر لافون، باريس، ١٩٨٥

مقدمة

إن الغرائبية الرومانتيكية هي ما يؤجج فينا الخيال ـ إلا باستثناءات قليلة ـ أكثر مما يحفز لدينا الملاحظة الصارمة للأشياء ودقة وصف الناس المحيطين بنا والديكورات والسلوك والوقائع، فنجد الحقيقة نسبة إلى ستندال، أو ماريميه، مرمنسة(*)، وفي الحالات القصوى لدى نرفال، وكم لدينا من صفحات برّاقة وملونة وممتعة ومثيرة للاستغراب، لأنها تعبر عن تقليعة أدبية بيد أنها مزيفة وتقليدية دون حدود! فكم كان هنالك من قطاع طرق أسبان، وباشوات عاشقين، كم هنالك من (جون بل)، (وكريتشن) العاطفي كما يشتهي! ولكن كان علينا أن لا ننتظر ردة الفعل طويلاً، فقد أعقبت غرائبية الشرقيات: (الغوزلا)، و(البورغراف)، و(غرازيلا) الشكل الجديد للتقليعة الأدبية وبسرعة فائقة. وقد كان هذا التأثير عميقاً، وليس لنا لكي نقتنع بذلك سوى أن نصفح للكتاب الذين ولدو أو شبّوا في أوج الرومانتيكية.

كان عوبينو كما يتحدث عنه أحد أصدقاء طفولته[١].

(لم يكن يحلم إلا بالمساجد والمنائر، وكان يقول عن نفسه أنه مسلم.... وأنه مستعد للذهاب إلى الحج في مكة، وكان يقسم بالنبي محمد، وكان مستعداً أن يلتزم بالزهد ولا يأكل إلا البيلو ومربيات الورد، وكان يروي لنا قصصاً عجائبية فيرغمنا على الجلوس

(*) مرمنسة: من الرومانس. م.

على الطريقة الشرقية لكي نصغي له).

كانت هذه الأحلام تسكن رأسه عندما كان يكتب عن إحدى شخصيات مؤلفه (قصص آسيوية).

(لقد توله بالشرق من خلال مطالعته كتب الرحالة، وكان يكتب الأشعار ويريد ـ كما يقول ـ أن يستلهم الينابيع ذات الإلهام والسمو...).

كان ينبغي عليه أن يعثر على هذه الينابيع في آسيا، فيتهكم غوبينو بسخرية:

(هذه الحيوانات الممتازة التي تطردها الموضة، كل ربيع من اصطبلاتها، لكي تصحبهم بعمل رحلة إلى الشرق ـ كما يقولون ـ فهم يرحلون إلى الشرق ويعودون منه دون أن يكونوا أكثر حكمةً لدى عودتهم مما كانوا عليه قبل زيارتهم للشرق، فهم لن يعرفوا ماضي الأماكن ولا حاضرها، ولا يعرفون سبباً لوجود الأشياء... فالشوارع تفتقر إلى الأرصفة، والطقس حار لاهب جداً في الصحراء، والأطلال كثيرة تسكنها حيوانات صغيرة تدعى العقارب، أما البراغيث فهي تشن حملات اجتياح لكل شخص يمرّ منها، ويطلب السكان المحليون بقشيشاً باهظاً وأنت لا تفهم لغتهم. إنه لمجد لامتناهٍ لهذا الجبروت، ولهذه الحكمة، وهذه الطيبة التي لم تشأ أن تكون بإمكان هؤلاء الخبثاء، وهؤلاء الحمقى، أن يلاحظوا كمالها وأن يقيسوا عذوبتها)[٢] إن الفعل لا يقترب تماماً من الحلم كما أن الواقع لا يتطابق تماماً مع الخيال، وكانوا على وشك أن يقتنعوا بذلك، لو لم يصغ كل من ماكسيم دوكومب وفلوبير لنصائح أصحاب الخبرة:

(إن الاشتغال على الشرقيات دون معرفة بالشرق ـ كما يقول الفارس جوبير إلى ماكسيم دوكومب ـ هو أنك تصنع حساء الأرنب دون أن

يكون لديك أرنب، ـ وربما كانت خيبة الأمل تنتظر الرحالة ـ بيد أنه عليك الذهاب، مع ذلك ـ إلى الشرق:

أم لو كان لدي استقلالكم ـ تابع الفارس حوبير ـ وسنكم لكنت ذهبت إلى الشرق... اذهبوا هناك واحتازوا المتوسط، وحلّوا أنى شئتم في مصر وسوريا وآسيا الصغرى، لا يهم سوى أن تتابعوا الرحيل[٣].

لقد عاش جيل برمته عند أعوام ١٨٤٠ ذلك الحلم الأكزوتي (الغرائبي) ولم يتوقف عنه حتى أنه لم يكن قد حققه، ففلوبير الذي كان تلميذاً في المدرسة كتب دون مهارة حكاية كورسيكية هي (سان بيزو أرنانو) وهي حكاية إيطالية تتحدث عن الطاعون في فلورنسا لقد كان في نيته أن يكتب رواية شرقية، ولو طالعنا مسودة روايته (نوفمبر) فإننا لن نجد فيها ما ينقض الأحلام الرومانتيكية:

(يا ليتني كنت راكب بغلة في الأندلس، راكب بغلة وحسب، أو سائق جندول في البندقية... كم هو سعيد هذا الشحاذ في نابولي، كنت بعض الأحيان أرى نفسي وقد وصلت صقليا).

في هذه البلاغة الصبيانية إيجاز واضح جداً، وكامن بما يكفي ليرينا الصور التي يصنعها الرومانتيكيون لأنفسهم عن العالم في ذلك الوقت[٤].

إن النص الذي أوجزناه يستحق أن يقرأ كاملاً، وكانت هنالك محاولات أخرى مثل (سعار وعجز) التي كتبت في العام ١٨٣٦، حينما كان فلوبير في السادسة عشرة من عمره، أو (ذكريات مجنون) التي تشتمل على سرد متطابق مع الأحداث[٥] لقد تبنى فلوبير الرومانتيكية واقتفى أثرها كل حياته دون أن تتوافق الحقيقة مطلقاً وتماماً مع رغباته، وهذا ما سيعيره يوماً إلى (ايما بوفاري) رمز جيل بأكمله[٦] ومن دون شك، إن كان قد تخلى عن وصف الشرق الحقيقي في (سالامبو) على

المستوى التاريخي فإنه كان وعلى شاكلة الكثيرين غيره قد زار اليونان، وآسيا الصغرى، ومصر فوجدها بعد أن كلفه الأمر عدداً من الخيبات، متعاً ومسرات استطيقية مركزة، وعلى شاكلة الآخرين فقد عاد منها بأحجار جديدة ليعلي القصر بعمارة متنافرة الأشكال، إزاء أولئك المهتمين بالغرائبية، وستعقب التزويقات الرومانتيكية، رسم أكثر زهداً وأكثر موضوعية ودقة، وأكثر عنفاً بألوانه(٧).

الهوامش:

١ ـ م. لوتش، الكونت أي أي دي غوبينو، سترازبورغ ١٩٢٤، ١٢٤ انظر كيليه عبقرية الأديان الكتاب الأول الفصل الثاني ص ٢ و٣.

٢ ـ قصص آسيوية، ١٩١٣، ص ٤٥١

٣ ـ ماكسيم دو كومب، ذكريات أدبية ١٢، ١٧٤ ـ ١٧٩ ـ ١٨٠

٤ ـ مؤلفات الشباب غير المنشورة كونار ١٩١٠ الجزء الأول ٩، ١١٥، ١٣٢، ١٦٤، ج ٢، ص ٢٤٣، ٢٤٢٠

٥ ـ مؤلفات الشباب غير المنشورة ج١ ١٥٣ ـ ١٥٤ ونقرأ على الأخص الصفحات المتميزة والغريبة جداً (نوفمبر) ج ٢ ٢٣٩ ـ ٢٤٢، والتي تشكل توليفة حقيقية من الروايات الغرائبية المعالم حوالي العام ١٨٤٠

٦ ـ مدام بوفاري، شاربونيه ١٨٨٢ ٣٤ ٠ ٤٥، ٢١٦ ـ ٢١٧

٧ ـ وكما أنه مارس الغرائبية في المكان فإنه كان قد مارسها في الزمان انظر رسالة معبرة جداً إلى جورج صاند (مراسلات) كونار ١٩١٠ ج ٣ ٤٢٩ ويكفي أن تتصفح المراسلات لكي ترى الدرجة التي كان فيها فلوبير موسوساً بفكرة الشرق فقد حلم بكتابة كتاب عن الشرق الحديث في مسوح سوداء انظر مذكرات غونكور ٢٨ آذار ١٨٦٢ ج ٢ ص ٢١

الفصل الأول

الرحلة إلى البلاد الإسلامية

«كان الذهاب إلى الشرق يمثل شيئاً مهماً في ذلك العصر ـ كتب ماكسيم دوكومب[1] وهو يحيي ذكريات رحلته للعام ١٨٤٤ ـ كان الناس ما زالوا يعتقدون بالطاعون، وبالغضب السماوي، وبمكائد قطاع الطارق، وبشاعة الانكشارية، أما أنا فلم أكن أؤمن إلا بالشمس، وقوافل الجمال ومشاهد الطبيعة الخلابة....».

الشرق[2] هو أرض التوراة والضياء، إنه الرومانتيكية أو الواقعية التي حلم بها لامارتين وديديه، وغوتييه، وفلوبير، وفرومنتان. فديديه المشمئز من باريس ومن فرنسا ومن أوروبا برمتها، ذهب هناك ليبحث عن (الراحة والنسيان) ولامارتين يفكر بالشرق ليحيي ذكريات شبابه المسيحية، ويتحرق لرؤية (تلك الجبال التي كان يهبط فيها الرب، وتلك الصحارى التي كانت تؤمها الملائكة، لتظهر لهاجر النبع الخفي) لقد كانت مخيلته عاشقة (للبحر، وللصحارى، وللجبال، وللعادات، ولآثار الله المرسومة على الشرق)، لم لا يرحل هناك؟

تفسر خطبته سلام على أكاديمية مرسيليا هذا الأمر بقليل من الإسهاب: لقد كان يتحرق إلى

الإبحار على محيط الرمل،

وإلى الاهتزاز المحذر في مركبة الصحراء،

ليحلم (أحلام يعقوب في ظل الضجة العذبة للنجوم النابضة) ويجعل تحت أقدامه رنين (الإمبراطورية الخالية من ميمون) ولا سيما (بالسير على

الآثار الإلهية) في هذه الحقول حيث يجهش النبي بالبكاء تحت شجرة زيتون[٣].

بيد أن عوتييه، وفلوبير، وفرومنتان كانوا يبحثون في تركيا، ومصر، والجزائر عن انفعالات فنية لأخلاقيات ملونة، هناك حيث يود الشاعر أن يحس، والرسام يرغب بالنظر، وليس هناك من شيء أكثر طرافة بهذا الخصوص من صفحة سطرتها يد فرومنتان، حيث يميز بوضوح يشوبه التجريد، بين الموقف الرومانتيكي المليء بالخيال، وموقف الواقعيين المليء بالملاحظة:

(الشرق شيء متفرد للغاية، نحن نراه سمة عظيمة، هذه السمة تكمن في كونه مجهولاً وجديداً وكونه يوقظ أولاً: أعظم المشاعر الغريبة التي تتعلق بالفن، وتلك التي هي أخطر الأشياء برمتها، ألا وهو الفضول، إنه يخاطب العيون، ولا يخاطب العقل إلا قليلاً، ولا أخاله له القدرة على إثارة الانفعال.... وحتى حينما يغدو جميلاً، وعلى أتم الجمال، فإنه يحتفظ بشيء من الكمال عصي على الوصف، وشيء مبالغ به وعنيف، يجعل منه متطرفاً أقصى التطرف، إنه نسق من الجمال... وأول آثاره حينما يبزغ بمظهره الغرائبي، فضلاً عن ذلك أنه يفرض نفسه بكل حدة: وذلك بجدةِ مظاهره وغرابة عاداته وأصالة نماذجه ووعورة آثاره،.. والسلسلة التي لا تبلى من ألوانه... إني لا أتحدث هنا عن شرق خيالي. إنما أتحدث عن هذا البلد المغبر والمبيض والساطع شيئاً ما أول ما يكون لونه، والكامد شيئاً ما، عندما لا يوقظه أي تلوين مشع... والذي يخلو تقريباً من الفضاء الثمين ومن المسافات)[٤].

إنها لإشارة بينة على الفارق بين الشرق المحلوم به، والشرق الحقيقي، إذن عن ماذا كان كتابنا يتحدثون؟[٥].

* * *

كان المترحل لا يشرع إلا في قافلة، أو أن يكون وحيداً كما فعل لامارتين حين انطلق بأربعة عشر جواداً، بسروج مزركشة وحواش من حرير، وبدلات لماعة، أو كما يحدث في أغلب المرات هو أن يكون المسافر ضائعاً، في قطيع يصل عدده أحياناً إلى آلاف من الجمال والخيول، كذلك الذي يرحل من دمشق إلى بغداد، وحيث لا يتم التوقف إلا في خان[٦] بفضل شجرة تين، أو شجرة جميز ضخمة، تستخدم كنقطة دالة للمسافر، وغالباً ما يتم المقيل لدى جانب من المدينة، حيث تكون الفرصة أكبر بالعثور على الضيافة الأكثر سعة، والأكثر حميمية، حيث يهرع أبناء المنزل لتقديم ماء الاغتسال، وحيث تنشغل الأم، ونساء الأبناء، بالخدمة، وهذا ما حدث على الأقل للامارتين، في فلسطين، حين تم استقباله كما لو كان سيداً عظيماً، وقد حوطه الشيوخ من كل صوب مدججين بالخناجر ومحاطين برجالهم وخدمهم:

(كان الشيخ بانتظارنا لدى مقدمة منزله، بينما كان ولده الأصغر يمسك بيده المجمرة الفضية، ويحرق باليد الأخرى أمام جيادنا بالبخور، وكان أخوته يلقون على ثيابنا بروائح العطور، وكانت بانتظارنا وليمة عظيمة في الصالة المجاورة حيث أشجار بأكملها تتوهج في باحة النزل).

ولطالما تغنى فكتور هوغو بالضيافة العربية:

إن لم تعد تفكر إلا قليلاً،

ببنات الصحراء اللواتي يغنين بصوت عذب،

واللواتي يرقصن بأقدام عارية، على كثيب الرمل.....

لم تكن حكمة الضيافة تلك، حكمة عابثة: (لقد كانوا حقاً يملكون هذا الشيء) هذا ما كتبه جيرار حو ترفال، عن العرب (إنهم يمنحون الضيافة لكل الناس) أفلم يقدم العرب إلى لامارتين يوماً جوادين

فرفضهما، وقدموا له نعاجاً وخرافاً لإطعام حاشيته فقبل ذلك؟

ألم يكن هناك رحال أقل سيادة من مؤلف حوسلين، رجال متل نوفال، وغوتييه، ومارميه أولئك الدي رحلوا بأبهة أقل من أبهته، بيد أبهم لم يكونوا أقل اتفاقاً منه، ليجزلوا المديح إلى عظمة وحميمية مضيفيهم العرب[٧].

وقد ظل شارل ديديه هو السابق الوحيد لبيير لوتي في اختراق أطراف سيناء متوغلاً عن طريق السويس، والبحر الأحمر، إلى جدة، ومكة المكرمة. لقد كان مستوحداً أبدياً ومذكرات رحلته لا تفتقر إلا للألوان وقد كانت نثريته تفتقر إلى القيمة الأدبية. إن كتابنا لا يذهبون بعيداً، لقد كانوا يحطون الرحال في فلسطين بينما يصلونها من مارسيليا، كما فعل لامارتين أو من اسطنبول كما فعل مارميه، أو من مصر كما فعل نرفال، وغوستاف فلوبير، وماكسيم دوكومب، وقد كانوا يذهبون إلى آسيا الصغرى، كما فعل مارميه، وج ج أمبير وأخيراً إنهم يؤمون اسطنبول كما فعل فلوبير، ونرفال، وغوتييه على الأخص.

* * *

إنهم يستعيدون في سوريا وفلسطين بوساطة التوراة كل العصر القديم، كل العصور الفينيقية، وامبراطورياتهم الأواخر، والمشاهد السحرية، حيث بيروت محاطة بالجنائن من كل صوب،

«إنها أوروبا التي تختلط بآسيا بدعابات مسترخية»[٨] إنه صُور، وذاك تراب الإمبراطورية في الظل الجميل الذي يغتني عند الاقتراب منه) والذي تحلق عليه النسور (وهناك لامارتين الذي يحلم بانخيل) في صيدون المهدمة (في هذه البقعة البائسة حيث حلت مكان المدن العظيمة أكوام من الخرائب والقصبات الزرية) فهذا هو الكرمل ذو الانحدارات المعطرة، وبئر

سليمان، وأرض شنعان، وسهل ربلون بعذوبته العظيمة (إنه بوسان أو كلود لوران منقول إلينا)، وهكذا يصرخ لامارتين[٩] هكذا هو الشرق كما عرفناه سابقاً، الشرق الممتليء الذي طالما حلمنا به: (الليل تحت الخيمة، نهيق الخيول قربنا، وخوار الخيل، ودخان نيران المساء) ومن هنا كان يلوح لبنان في الأفق، (حيث الأمواج المتحجرة مثل نهر من الجيرانيت) أنت تسافر (بالقلب والروح) حاملاً الإنجيل في يد، والخريطة في اليد الأخرى. وهناك تتوغل أفواج الحجيج المسيحيين والمسلمين نحو الداخل عبر المضائق والشعاب، التي تبدو وكأنها قد نحتت بمطرقة، وحيث يسير المسافرون بينها، بينما تنتظرهم هناك العواطف الجياشة[١٠].

لقد كان لامارتين، ومارميه، ونرفال، وفلوبير يقطعون سوريا، ولبنان وكانوا يبتهجون للضجة المبرقشة التي تعرضها عليهم بازارات بيروت ودمشق[١١] وكانوا يعجبون بالقرى والضياع التي لها شكل أعشاش النسور، حيث يقطنها الدروز، هناك حين استقبل الأمير بشير الشهابي لامارتين بقصر ذي أبراج مسننة وأروقة مقوسة، وقد انتصب بسلالمه المرمر وأحواضه الهامسة:

(حييناه على طريقة أهل البلد، وذلك بحمل اليد على الجبين ومن ثم على القلب، وخلف أحد الأعمدة كنا نبصر نمراً ضخماً، كان يغفو بينما يتكيء رأسه على أطرافه المتعاكسة)[١٢].

هذا ما تختلف عنه باريس - أو نابولي! فأبهة الاستقبال تبهجه. إنه يتذوق مثلما كان نرفال[١٣] يتذوق دفء البساطة الأبوية لهذه العادات. (في هذه الجبال البكر التي لم تنتهك بعد، وحيث يحيا الناس فيها وجوداً قروسطياً، فالأميرات يذهبن إلى الينبوع، بينما آباؤهن وأزواجهن وإخوانهن يصطادون الصقور).

(حينما تجتاز قرية ترى الشيخ جالساً قبالة قصره الريفي المسنن الصغير، حيث تلعب الخيول المسرجة الجميلة في الباحة، بينما يرتدي وجهاء القرية العباءات الباذخة المبطنة بالفرو، وأحزمتهم الحريرية الحمراء الملآى بالخناجر، فلا تحسب نفسك إلا أمام شعب من الملوك).

يا لها من مواضيع مثيرة للفضول، يا لها من موتيفات ساحرة! إنها الأديرة المارونية والأرثوذكسية في تنافسها الأبدي[١٤] إنها أشجار الأرز في لبنان تلك الأشجار التي تتوج مثل البراقع جبهة الجبل، وتبدو مثل كائنات إلاهية هبطت على الأرض بهيأة أشجار، وقد كان الشاعر يدين لها بأجمل الصفحات، في سقوط الملائكة، وبرائعته الشهيرة أناشيد الأرز[١٥].

كما أنه وعلى مقربة من صيدون، هناك الليدي استانهوب الغامضة (سيريس الصحارى) المحبوسة في قصرها الريفي الصغير، هناك بعلبك وخرائبها العظيمة[١٦] والقدس خاصة والمدن التي مر بها المسيح.

* * *

وفي الناصرة يطل لامارتين في تأمل صامت، ومن على نبع مريم، أية بانوراما تلك التي كان يكتشفها! يا لها من ذكريات تستيقظ في داخله (إنها مهد المسيحية برمتها) كتب مارميه و(عالم برمته من المعجزات) هذا هو الطابور، والجلبوة، والنعيم، والأندور، وكفر قاسم، وبحيرة طبريا، ونهر الأردن حيث تستحم[١٧]، أي كلام منمق في هذه الذكريات، إنه قليل غير أنه مكتوب بأسلوب مخلص، مثير للانفعال، فلامارتين هو شاتوبريان الذي يستقر على مبعدة من الأشياء التي يصفها، غير أننا نشعر به وهو يهتز ويرتعش حتى أننا نغفر له تضخم الذات هذا الذي يظهره في الصفحة الباهرة، من مصير الشعر الذي ربما بالغ في إجادة تركيبه وربما كان يصل إلى مسامعه نشيد العربي، وهو يتلو قصيدة لعنترة بن شداد،

قصيدة العبيد السود الثلاثة والأرملة التي تجهش في البكاء، على همس النشيد الذي يأتي منطلقاً من أحد الأديرة وهو يمتزج مع صوت النواقيس فحاول لامارتين أن يعرف معنى الشعر:

(إنه تنهد وصلاة على قبور، إنه تأمل شاك من عالم لا يعرف الموت، ولا الخرائب إنه تعبد وترتيلة)(١٨).

وكيف له أن يتأثر بذلك، وهو الذي ما زال يعتقد بما كتب فلوبير (أحلم بالمسيح الذي كان يسير على هذه الطرق حافي القدمين)(١٩).

فيا لها من رؤية غريبةومقلقة، رؤية القدس في الصمت الثقيل، وفي الوحدة الفتاكة حيث يكتشفها الشاعر، وحتى حين سقطت من أبهتها القديمة: (كومة من المقابر) كتب مارميه (حزين جداً مظهر المدينة هذه بجدرانها الرمادية وأبراجها الصامتة... والحقول الوعرة التي تحيط بها، فكل شيء هناك وهو في بياض كامد دون بروزات، دون ألوان، وحيث الفضاء صامت ومقفر أيضاً).

إن البدوي الذي يمر والمرأة التي تحمل جرتها على الكتف، بالكاد تنعش هذا المشهد، غير أننا نجد انطباعاً أكثر فضاضة من ذلك بكثير (تمنحني القدس الانطباع بأنها ركام جثث محصنة، فهنالك تتعفن بصمت الأديان القديمة برمتها، إنها ليست سوى ضخامة من الحزن... هي كومة جثث محاطة بالجدران... وأول شيء آثار فضولنا هي محلات القصابة، فقد رأينا في ساحة مربعة، حفرة كبيرة تحوي في داخلها دماً رائباً، وكرشاً، ومصارين، يميل بعضها إلى السواد وبعضها بني اللون، وكانت تفوح منها روائح جيف منفرة، لقد كانت حميلة لأنها قذارة صريحة يمكنك أن تشتم منها رائحة الرمس والأسى»(٢٠).

* * *

لقد تأمل لا مارتين، ومارميه، طويلاً في أماكن عذاثب المسيح، والسيدرون، والسيلوة، وحدائق الزيتون، حيث يقطف الشاعر منها التمر، يدعو للاحتفال بقداس في (الوادي الجالس في ظل الموت) والمتكيء على المصلب، قبالة البانوراما الفسيحة التي يتطلع إليها متأملاً قبر القديس حنا قديس الصحراء(٢١) بيد أننا نشعر بأنزعاجهم من اختلاط العقائد والعبادات، والصراعات المؤسفة للجماعات المسيحية، فهم مشوشون عند وصفهم لخطواتهم على خطوات المسيح، والصعود إلى رمسه، فتظهر رصانة مارميه التي لا تخلو من البروز وهو يقول: كيف لك أن تصلي بينما الجنود الأتراك هناك تحت قبب المعبد، جالسين على الأرائك يحتسون قهوتهم، ويدخنون غلايينهم، ويثرثرون كما لو كانوا في ثكنة؟

ويلاحظ فلوبير أن (الباشا يمتلك مفاتيح رمس المسيح، ولو لم تكن المفاتيح لديه لذبحت الطوائف بعضها البعض) وهي الثيمة التي استشعرها كل من بيير لوتي والتارويون(٢٢).

ويتم حفر (بحيرة أخادة) عند الضواحي، عبر بلد قاحل يمتدحتى بيت لحم وحتى البحر الميت، وذلك بدفع فدية إلى شيخ عجوز (كان قد سلب قوافل عدة وذبح فوجاً من الناس بيد أنه ربما بسبب هذا الأمر أضحى يحظى بإجلال أكبر بين الناس) ويستحضر فلوبير لناميلاد المسيح متأسفاً، لأن الجميع هنا حتى الأتراك منهم يتاجرون بالصليب والمسبحة، أين هي إذن أزهار صارون؟ لطالما اجتاز الأتراك فلسطين (والأتراك مثل حصان اتيلا!) هذا هو جريشو ولكن أين هو السعف؟

إن كان مارميه يؤمن بالحياة حين كان يجلس أمام نافورة السلطان، وهو يلتهم خروفاً مطهياً بالطريقة العربية.. وهو (مشهد من الحياة البدوية

لرب العائلة) فإنه لم يكن يكتشف المشهد الانجيلي الرائع الذي كان يحلم به. ولم يكن هناك سوى ديكور البحر الميت حيث هلاك سادوم وعامورة يجاوب الفكرة التي كانت تدور في مخيلة رحالتنا عن هذا المكان.

مع ذلك لقد كان فلوبير ذاته منفعلاً للعذوبة الصوفية للمصلي المحلي[٢٣] أما جمال الأرض الموعودة، فإننا نكتشفه في سوريا ولبنان، ففي بيروت وفي دمشق هنالك على الأقل (الرجال والنساء، والعصافير، والحيوانات، والأشجار، والجبال، والبحر، والسماء، والمناخ وكل شيء جميل ونقي ورائع وديني... وليس هنالك من مكان على الأرض يذكر بأفضل من هذه الأمكنة بجنائن عدن، فليس لنابولي ولالسورنت ولا لروما ولا لأثينا أفق بهذا الجمال)[٢٤].

* * *

ويمكن للمرء أن يحل في سميرن، بعد أن يجتاز بحر ايجة، ويتوقف في قبرص الوعرة، والعارية أو في رودس، التي أعجب لامارتين بنسائها أيما إعجاب، النساء الجالسات في المشربيات يسبحن في ضوء القمر[٢٥] ولا تخلو السفرة، على الإطلاق من الألوان البيتورسكية، المتنوعة إذ يحمل المركب الشراعي أو التجاري دون تحديد ـ مرتزقة: إنجلترا ومندوبين مارسيليين وكهنة أرثوذكسيين وعرب وبلغار وحجاج يهود (بحمولاتهم المعتادة من الصناديق والملابس القديمة والمؤن وذلك حينما يرتحل اليهود فإنهم ينقلون كل ما في دارهم من رأسه إلى عقبه. وهنالك أيضاً ضباط أتراك جالسون بوقار على حصيرة والغلايين بأيديهم)[٢٦] هذا هو على نحو خاص ما كان يجذب الرحالة الذين يتوقون بوله نحو الغرائبية والعجائبية! فهم ينظرون إلى نساء محشورات في طرف من ظهر السفينة، أو نساء مستلقيات على سجاجيد مزخرفة، محروسات بعبيد، وخصيان،

وهن يحاولن من تحت حجبهن أن يذكرن الآخرين بوجودهن. وقبالة هذا الموقف الانفعالي لقراء الشرقيات، أيتمكنون من تحت اليشاميغ من اكتشاف هذا الجمال الذي كانوا يحلمون به؟ إنها الخيبة إذن إذ (لم تكن هنالك جميلة واحدة)، فتنطلق الحماسة المحررة أمام آسيا (العذبة والباسمة تحت أشعة الصباح الوردي)[٢٧].

(يا له من جمال رائع ـ يصرخ فلوبير ـ حمال شرقي قديم) إن هذا ليذكر بالترف الضائع والبرانص القانية الموشاة بالذهب... فليس هنالك مما كنت قد شاهدته ـ هذا مايسجله ماكسيم دوكومب ـ يشبه هذه المدن العربية المختلطة بالأشجار، والمزينة بالمنارات، حيث يرتل المؤذنون، وتموج في المدن النساء المحجبات، والرجال وهم يرتدون البذلات ذات الألوان الصارخة، والناصعة، ويحملون الأسلحة البراقة واللماعة[٢٨] لقد ذاق الجميع قبل بيير لوتي سحر (مدن الشرق القديمة الراقدة في مناطق ممتنعة ولا يمكن النفاذ إليها وذلك بصمتها وعجائبيتها الممتدة حتى مشارف أوروبا[٢٩] وها أنت تصبح بين الجمركيين،وهم يذكرون بهيئة قطاع الطرق، حيث يعتمرون الطرابيش، والعمائم التي تشبه القمع ويتسلحون بالبطوغونات والكونجيرات، فتدرك في الحال أنك وسط بلاد الإسلام.

كان تيوفيل غوتييه يستريح في مقهى جسر القوافل، عند أبواب سميرن يحتسي المصطقي ويسرح الطرف إلى مرور الجمال التي تقودها امرأتان ومخصي وكلاب شريدة، وهذه المرة الأولى التي ينظر فيها في الشرق إلى الناس التي لا تعمل شيئاً، ومع ذلك فهم يتعاملون مع الأمر بضمير رائع[٣٠] ويجوس مارميه وج. ج. أمبير داخل هذه الأراض، مزودين بجوازات سفر تفصح لمؤلف (الغزالا)[٣١]، عن (شعر حمامة

الطرغلا وعيون الأسد). ونستحضر عند (الميلاس) هوميروس وعند (الكيستر) فرجيل رغم أنه لم يعد هنالك بجع ولا لقالق.

وبعد أن نحتاز الهضاب الصخرية، بحراسة موكب مدجج بالسلاح، فإننا نتوغل في (ايفاس) أو (مغنازي) ثم نقتفي التواءات (الماندرا) ثم نحل في (طروادة) غير أن علينا أن نقول أن انفعال هؤلاء الفنانين الذين هم إنسانيون في الوقت ذاته، يظل انفعالاً مخلصاً، وأكثر عفوية ربما من انفعال شاتوبريان. إننا نتوقف في أماكن جنائزية: (ينبوع الدم، مقهى الجلاد ثم تمنعك عن النوم صرخات الذئاب وأصوات ابن آوى وفي النهار يا له من ضياء باهر! فكم يريحك رؤية الأكروبول من الأعلى لأن الباكتول لم يكن سوى رافد صغير!) ثم تفقد الذكريات التقليدية أهميتها بعد مواجهتها هكذا مع الواقع، بيد أنه يكفي الحاضر أن يكون بألوانه البيتورسكية هذه، ليثير الحماس لدى أمير ومارميه الذين وجب عليهم أن يلاحظوا الإسلام والأتراك يرحلون...[٣٢].

* * *

ويظل أخيراً وفي مطاف الرحلةهذه أن نصل اسطنبول، التي تزيح لنا روعة البانوراما عن كل ضعف في التقريرات التاريخية والأدبية (إنه لسبيل للتفكير بجزة (كلوشيد) وبالضربات المريعة لمحمد سلطان) هكذا كانت أوروبا وآسيا وهما تنتعشان تحت أشعة الشمس، متلألئتين في الأمواج مثل سلتين من الأزهار[٣٣] وكم من الكتاب كان قد حلّل ببراعة الانفعال الذي يجتاحه عند رؤية القرن الذهبي، حيث أن انقشاع الوهم لدى لامارتين يمر بالجملة هذه (ايستحق المشقة البحث عن خيبة الأمل هذه وبهذا البعد؟).

إن هذا التساؤل لا يدوم سوى لحظة، حين ينسى الرحالة أمام سحر

المشهد الذي ينفتح أمامه وإلى الأبد عن خليج نابولي بجميع مسراته (حيث تكون مقارنة أي شيء بهذا الجمع الرائع والرشيق ضرباً من شتم الخليقة)[٣٤].

سيكون بإمكانك حالما تلج متاهة الأزقة الضيقة، والملتوية، والأسواق المهملة القدرة، أن تكون مثل مارميه وهو يخفف من لجهته صارخاً (إنه من الأوجب رؤية اسطنبول من بعيد)[٣٥] أما في الوقت الحاضر فإنك لا تعرف أين تضع نظراتك من كثرة الديكورات الجذابة والمتنوعة! فهنالك رأس السراي بأشجار الدلب والسرو وجدرانه المسننة وأكشاكه حيث (صناديق الخشب هذه، بأسيجتها الحديدية الضيقة تضم جمالاً جيوروجيا وسيركاسيا، ويونانياً وتضم حوريات فردوس السلطان محمد الذي كان يقول للرب.. أيها العاهل.. حيث لا تشبهها بفضاعة سوىأقفاص الدجاج هذه).

كان تيوفيل غوتييه لا يتبين بمروره المنحدر، الذي يلقى بوساطته الجاريات إلى البحر، فيشفى من نزوعه الرومانتيكي التافه فيقول: إن لم تكن هذه الخرافة صحيحة (فإن لها على الأقل ذلك الطابع المحلي)،. وهنالك أبعد قليلاً من هذا المكان، القصر ذو الأبراج السبعة، وبرج الباندر وجامع طوب حنا اسكوتاري بمقابره والقرن المحزز بالقوايق (زوارق طويلة ضيقة تسير بالمجداف تستخدم خاصة في البسفور«المترجمان») وبيرا ببازاراتها وقصورها المزهرة بالشرفات والنوافذ المشبكة بالقضبان والتي تنغمر سلالمها المرمرية في البسفور، وتطل على هذا المشهد الكوبولات الزرقاء، والمنائر البيضاء للجوامع التي تتقاطع في الأفق، مجسدة لغوتييه أو لنرفال ديكور (مغيب الشمس والمشهد الذي تغنى به جميع الرومانتيكيين، وهنالك تراقيا مدينة الشعراء، وبوحدرة على الطرف من آسيا[٣٦] وهكذا

نجد غوتييه الذي يبدو للوهلة الأولى موضوعياً، ثم سرعان ما ينفعل ويترك العنان لانفعاله:

(إن هذاالمشهد لجميل حتى الغرابة حتى أنك لتشك بحقيقته) هذا هو غوتييه عند ريف اسكوتاري، مقهى وزوارق وقوايق تعلو حافاتها الأمواج، ثم ينبوع وضجة من الجياد والكلاب والجمال والحمير الصغيرة، ثم عرب يمرون، وجنود يتسكعون مترنحين، وأنت ترى هذه الجماعات من النساء الملفعات، يعبونهن السوداء الواسعة... ثم يلج غوتييه المدينة، في أحيائها القديمة المتهدمة، وساحاتها المقفرة الصامتة، وليس هنالك سوى الضياء النقي والأبيض، ضياء الشرق الذي لا يقهر) إن غوتييه يلهو بعذوبة ولن تكتسحه كما اكتسحت بيير لوتي من قبل هذه الجدران المتصدعة، فهو الرسام البارع والحساس الذي يخبرنا عن كل ما هو بيتورسكي دون أن يخفي بشاعات وفضاعات المشهد: فهو يندهش أمام الحصون العظيمة التي تحاصر المدينة قائلاً:

(سيكون من العسير علينا أن نفترض وجود مدينة حية خلف هذه الحصون الميتة، أنت تخال نفسك عند أطراف إحدى مدن الحكايات العربية التي صعقت سكانها لعنة ما وحجرتهم).

فتبدو السقوف كما لو أنها (أصابها البرصام) (ولا يمكن تصور شيء أكثر دناءة وأكثر نتانة وأكثر قبحاً من (بلاطا) الحي اليهودي) فيما يبدو من الفنار (حي اليونانيين الأثرياء بمنازله الأنيقة التي لهاهيئة الأسوار) وليس هنالك من وسيلة لتطهير عاصمة السلاطين سوى الحريق:

(إنها واقعة طبيعية... فوجود منزل له من العمر ستين عاماً شيء نادر) أما في ما يتعلق بخدمات إزالة القاذورات فإن الكلاب، (التي تضمر حقداً أبدياً، للأوروبيين) تتكفل بذلك الأمر[٣٧].

ولا يمكن التفكير بالدخول إلى السراي، الشاهد على الكثير من اللذات المسترخية، والكثير من المآسي المروعة[٣٨] ومن الحذر أن تزور اسكوتاري (التي تشبه قصبة سان جرمان) في اسطنبول[٣٩] ملجأ الأتراك العجائز والعادات السلفية، وحيث أن إلقاء نظرة داخل باحة الجامع لا تخلو من خطورة. ولم يرى لامارتين في آيات صوفي سوى (هضبة لا شكل لها وهي كومة بشعة، من الحجارة المتراكمة التي يعلوها سقف يلمع تحت الشمس) ولم ير فيها فلوبير سوى (مزيج من الأبنية الشنيعة) ويصف غوتييه بصرامة جوامع السلطان بايزيد والسلطان اشمت بمنائره الستة، وآيات صوفيا بهندسته الباذخة، وهو يحكم على الداخل بالثقل، غير أنه يعجب بالأبعاد الضخمة لأجنحتها، ومع أن وصفه التقني يخلو من الحياة، إلا أن دقته صارمة، ونحن نبحث عن الملمح الذي كان فيه بارزاً[٤٠] ومن الثابت كان هنالك في اسطنبول، لهواة الغرائب، مشاهد بيتورسكية، وإن نحن لم نلج الدواخل الارستقراطية المحصنة بإحكام، فيظل هنالك التجوال في الأماكن التي تتركز فيها الحيوية، وهي المقابر، والبارارات.

فالأولى هي عبارة عن جنائن حقيقية غير مشذبة وقد هدمتها وخربتها البغال والكلاب وقد تحولت إلى أماكن لنزهة المساء. وكان مارميه يأسى للنسيان المؤسف والتدنيس الشنيع الذي تعرضت له الأضرحة المهدمة والأرماس الخربة، ويخلص إلى القول بأن مشهداً من هذا النوع له طابع الموعظة الأخلاقية الصارمة، والسوداوية وأن هذه الصور المستقرة الثابتة للموت وسط حركة الحجارة هذه يمكنها أن توقض أفكاراً فلسفية[٤١]. وأن الرسامين والشعراء أمثال لامارتين ونرفال وغوتييه قد تحسسوا منذ زمن طويل قبل بيير لوتي سوداوية أشجار السرو للنبي أيوب فيصف لامارتين بإسهاب:

(الأماكن المنزوية والعذبة للمقابر التركية، حيث نرى كل مساء المسلمين وهم ينكفئون منحنين على قبور أسدقائهم، يدخنون الغلايين ويتحدثون بهدوء).

وقد رأى امرأة يافعة يرافقها أطفالها وخدمها، وهي تحمل صحاف زهور إلى قبر زوجها وظلت شيئاً من الوقت تبكي على رماده.

وكتب (سعيدون هم الأتراك حيث يرتاحون أبداً في موقع اخلصائهم المتوفين، فيجلسون في ظل الشجرة التي أحبوها وعلى طرف التيار الجاري الذي سحرهم بهمسه، تزورهم الحمائم التي كانوا يغذونها في حياتهم وتعطرهم النباتات التي زرعوها) ويتحدث غوتييه هو الآخر عن سحر هذه (القبور الجميلة من المرمر الأبيض المبرقشة بالحروف التركية المذهبة، على خلفية زرقاء بلون السماء، أو خضراء بلون التفاح، وهي تلمع بمرح تحت الأشجار، وتكشف عنها أشعة الشمس) دون أن يكون لها أي مظهر مأتمي، بينما يثر في أولئك الذين لم يعتادوا عليه سوداوية باهتة. لذا فإن التركي غالباً ما يذهب ليحلم هناك، وأحياناً تحت ضوء القمر (مع الموتى يحتسي القهوة، ومعهم يدخن الشبوق «غليون تركي ذو انبوب طويل» دون أن يكون للموتى مظهر الأشباح) وفوق كل قبر ثمة حوض صغير لإراقة الشراب من العطر أو الحليب الذي يمنح للمتوفى، وكل قبر منها مزين بمسلة ملتفة بعمامة يعلوها سرو، وهذا ما يثير انفعالات لذيذة:

(كان للهواء عذوبة ساحرة، وكنت أشعر بالحياة وهي تغمرني وتغمر كل مساماتي وسط هذه الغابة الداجية التي كانت أرضها مخلوقة من تراب حي)[٤٢].

ولنقرأ الوصف الذي سجله غوتييه عن حقل الأموات الصغير الذي تحلق فوقه الحمائم: (كسالى ينامون في الظل، أو يدخنون غلايينهم

جالسين فوق قبر، وهناك نساء ملفعات يمررن يسحبن جزمهن الصفراء بهيئة لا مبالية، وأطفال يلعبون الخبيئة خلف الشواهد، بينما ينقر الدجاج بين فجوات الصروح المنهارة، وتبحث البقرات عن دويبات هزيلة من العشب وان لم تجدها تأكل الثيل وترعى على بقايا النعل الباقية أو على أطراف القبعات القديمة)[٤٣].

بيد أن حيوية الحركة تظل في هذه الأماكن خفية جنب تلك التي تملأ البازارات حيث يزدحم حشد من الرجال المحليين يتدافعون بالأكواع في اسطنبول: أتراك، يهود، أرمن، يونانيون، وأفرنجة، وعرب (شوارع، وأروقة، وممرات، وتقاطعات، وساحات، ونافورات تشكل متاهة عصية على الحل، شبيهة بحي المعبد في باريس، نحن هنا إذن في القلب ذاته من الإسلام).

وقد وجدت قريحة غوتييه لعبة جميلة لتصفها جنب بازار البراغيث ـ هنالك المشرحة، ركام الجثث، مسلخ الحيوانات حيث تختفي الأشياء الجميلة، هنالك ركام الخرق، والأسمال البالية، حيث تجد كل ما هو غير مثقوب، تجده ملطخاً.

وفي أطراف البازار التي تزدحم فيه الثروات التي لا تحصى، هنالك يتربع البائعون في مضاجعهم ينتظرون الزبائن وهم يدخنون، أو يلهون بالمسبحة، ونساء ترافقهن زنجيات ومخصيون؛ وبائعوا عطور، يضعون الأنسجة الحريرية وأقمشة البروس والغندورات البراقة كيفما اتفق:

(مهما كان، فإن ما تطلبه ستجده، وبإمكانك أن تجربه، هذا إن أعجبك فهذه سترة الأمير كرمال الزمان، وفتح الثوب الأصيل للأميرة بدر البدور...).

وقد تبهر البابوحات على الأخص والخفاف الرحالة المسافر فهنالك من هي (من جلد الماعز، ومن القطيفة والبروكار «والنسيج المقصب بالحرير

والذهب» وهنالك منه هو المنقط والمزركش بالتمذر، والمقصب بالجدائل، وهنالك المقوس، والمرفوع، والمنقاد مثل الجندول الفينيقي، وهنالك بابوجات تبعث الحسرة في قلب رودولف وساندرلا، بأناقتها وإن ثراء المفردات بالكاد يصل إلى وصفها)(٤٤).

ما هو البازار؟

إنه مكان واسع حيث تتيه في ظلال قببه الثابتة، وكتب بير لوتي:

(جادات من ألف متر محاطة بالعديد من الحوانيت الصغيرة، حيث تتلألأ فيها الأسلحة اليدوية، والفخار، والنحاس المنقوش الناعم مثل الدانتيلا، وحرير البروس الجميل، وحرير دمشق، إنه بابل النقاشات والأصوات، ومتحف الوجوه والبذلات، حيث يخاطر عدد من الحمقى بالسير فيه، بستر وقبعات).

ويجذب الرحالة من بين كل هذه الأنحاء التي يتألف منها البازار، سوق النخاسة والعبيد، فينظر المشتري بأروقة مروّسة، رحالاً ونساء، ويمكنك أن ترى فيه إلى جانب العبيد الصغار، الأحباش النحاف، والنحاسي اللون، ونساء الحريم المبعوثات هناك عقاباً لهن من قبل أسيادهن على كبريائهن، فيشتري الأتراك من باب الإحسان، عبيداً مسنين مرضاة لله، بينما تقف الشركسيات المكتسيات بالبياض غير مباليات يحاورن زنجيات ضاحكات، ولا يكلف شراؤهن غالياً (ثلاثة إلى خمسة فرنكات) بيد أن المشهد لا يمكن الاعتراف به:

(إنه أقل طرافة مما يتوقعه السواح، حيث بإمكانهم أن يعودوا إلى البسفور لاستئجار الزوارق والذهاب إلى مياه آسيا العذبة) فإلى جانب الزورق التركي هنالك جندول البندقية الأنيق، الذي لم يكن سوى خزان مبتذل، وإن المراكب التجارية قد بدأت بمنافستها ومع ذلك لم يتحدث

أحد حينها، عن جاذبية الأحلام المسترخية، أو النزهات السريعة على القرن الذهبي، وذلك لأنه لا لامارتين، ولاغوتييه، ولا مارميه قد عاشوا حياة الإسلام كما فعل بيير لوتي.

* * *

لقد جاور كل من لامارتين، وغوتييه، ومارميه، وجيرار دو نرفال عن قرب كاف حياة الإسلام، كي يستخلصوا منها بعض الملامح الخارجية التي سجلوها بدقة متناهية، ويمكننا أن نثق بهم مع احتفاظنا بهذه الملاحظة الدقيقة التي سجلها اندريه بروسولر (إنني احترس تمام الاحتراس من الشعر الذي كنا غلفنا به الشرقيين، والذي كنا قد نميناهم فيه، وإني أتلهف لتجاهل الدرجة التي كان انطباعي فيها صادقاً، أو كان خارجاً عن الكتب)[٤٥].

فالشرق أولاً هو بلد الديانات المختلفة، ويؤكد نرفال بحق على مزيج الاعتقادات والحماس الصوفي الذي يميزها، فهنالك: المسلمون، والصابئون، والدروز، واليهود الذين ينتظرون بإيمان لا يتزعزع النبي الذي سيقول لهم ماهية الأشياء، وإنهم ينتظرون ظهور الله بنفسه فيظهر عنهم الحجب من وقت إلى آخر، مثل الخليفة الحاكم الذي رأى بنفسه المنتظر، والتي تبدو حكايته كما يلخصها نرفال، كما لو كانت إحدى حكايات ألف ليلة وليلة، وتدافع الجاليات المسيحية عن امتيازاتها وتلجأ إلى الدعاية: فهنالك أحد المبعوثين الإنجليز الذي يحلم بتأسيس إسلام انجليكاني[٤٦].

إن تركيا هي أرض العبادات، والمعجزات، وحتى الخرافات... إنها بلد التأمل العميق والحدس، والعبادة، إنها البلاد التي تهيمن عليها الجوامع، الجوامع التي تمتد في كل البلاد، وعلى المدن الصبيحة الطقسية (الله * *

الله * * الله أكبر) وحيث تصطف على أبواب جوامعها السوابيج ترى أجنحتها وهي تهتز بصلوات المؤمنين، والتي ترتل بصوت حاد آذان المؤذنين، إنها ثيمات عديدة، وتنويعات لامعة، وسندع هنا لامارتين، ومارميه، وغوتييه، ونرفال لنأتي في الحال إلى بيير لوتي[٤٧] الذي عرف كيف يصف هذا شعراً أفضل من غيره:

(الترتيل ذو اللغز العظيم الذي يراق بدفقات سوداوية عصبية على الوصف، ثم تتعاقب سلسلة متتابعة في طبقة صوتية واطئة، إنه نشيد التذكير لأولئك الذين دوخهم السراب المؤقت للأشياء إنه نشيد الخشوع، نشيد الموت والحزن العذب واللذيذ في صوتهم الذي يقل في ساعات محددة بحزن غير متناه اسم الله * * * الله الله أكبر).

لقد أوحى الآذان إلى بيير لوتي، عدداً من الصفحات الرقيقة إلى حد الانفعال، التي كرسها للإسلام، فهنالك في كتابه (المبرورون في السحر)، مقطعاً شعرياً مكثفاً، يقدم لوتي فيه المؤمنين وهم يصلون بصمت في الجامع، بعد أن دعاهم صوت المؤذن العذب، في حين أنه الرومي الذي حرم عليه الاقتراب من السقيفة الخارجية عندما ترتفع الصلاة..

هنالك على الأقل ثيمتان دينيتان تتعلقان بالإسلام لم يهملهما زوار الشرق، أولاً الصيام الإسلامي الذي هو مادة جيدة للملاحظات بيتورسكية، ففي رمضان يتم الصيام بكرنفال طوال الشهر المقدس كله، حيث يمتنع المؤمنون عن الطعام، والتدخين، والشراب طوال النهار وفي الليل يمكن لغوتييه، ونرفال أن يستخدما أدلاء للسير في شوارع (اسطنبول) المشبعة بالأضواء اللماعة مثل تاج العقيق لإمبراطورية الشرق. فالمدينة مضاءة، ويعكس البسفور مسبحات من النار ترسمها القبب، والمنائر، والشوارع التي كانت لا يحيي موتها أثناء النهار سوى

الكلاب غير أنه حينما يضرب المدفع اطلاقته معلناً نهاية الصوم، تدب في المدينة حيوية مرحة، اطلاقات مدفعية ونار كنار البنغال تلمع فوق المنائر مثل فنارات البحر:

(العاب نارية من الماس والزمرد والسافير والياقوت الأحمر) تتفرقع على مبعدة ثلاثة أو أربعة فراسخ، وعلى ساحة الطوب، يتسارع البلغار، والشركس، والجورجيون، والأرناؤوط، واليونانيون الأتراك برونـدوكاتهم وقفاطينهم فيشترون اللبن، والحلويات، والعصير، والمكسرات، فتسمع الدرابك وهي تشخر، والمزامير وهي تقوقيء، ويستمر في الفضاء الأزرق لليل هذا الكرنفال، حتى الشعاع الأول من الصباح(٤٨).

والمشهد الثاني ذو المظهر الإسلامي البحت: هو الرقص الغريب للدراويش الذي ذهب لامارتين، وغوتييه، في بييرا، لرؤيتها، لرؤية هذه العروض الورعة، والمقدسة في صالة دائرية، حيث يشاهدها المرء بدهشة، فبعد أن تمر المواكب ببطء وبإيقاع متسارع، وبعد صلوات حادة عنيفة، وسجود، وركوع غامر بالإيمان والصرامة، على هدير الصلوات والهمس الغريب، يأخذ واحد اثنان ثم ثلاثة فعشرة من الدراويش المزامير والطبول معتمرين طاقيات شبيهة بآنية الورد المعقوفة فيرمون أنفسهم وأذرعهم متصالبة، في رقص هائم بيد أنه منتظم، دون كلل، وبتسارع الإيقاع شيئاً فشيئاً، حتى تأخذ الهيئات شكلاً ذهولياً:

(إنه التعبير الورع الأكثر تقشفاً، ماذا كانوا يبصرون يا ترى في هذه الرؤى التي تؤرجحهم - يتسائل غوتييه - أتكون غايات الزمرد بثمار العقيق وجبال العنبر، والمران وأكشاك الماس وخيم اللآليء في الجنة)؟.

لقد كانت ثغورهم الباسمة تتلقى دون شك القبلات المعطرة بالسمك واللبان قبلات الحوريات البيضاوات، قبلات خضراء حمراء... وأعينهم

الواجفة تتأمل روائع الله.... كنت حضرت حتى المساء دوران التنانير البيضاء المنشورة وسمعت تطن في أذني التيمة الفائقة العذوبة للمزمار الذي كان يتقافز على الهدير الخفيض للدرابك).

إن القداسة والفقر والبساطة وجلد الراقصين أمر معروف. بيد أن ما هو أكثر إثارة، علاوة على هذا الأمر، هو طقس الصارخين وغناؤهم الحاد وزعيقهم المبحوح والممتد والمصاحب وهو يزداد تسارعاً بينما كانت وجوههم تتشوه كلما اعتلى تمجيدهم، وتعطى بالزبد، ويذكرنا صراخهم بخوار الماموث والمصطادون حيث تضوع منهم روائح وحشية، إنه (شهر خارق ومروع) كتب ماكسيم دوكومب بعد بقائه شاهداً وحيداً بصحبة إنجليزية تبلغ من العمر عشرين عاماً (إنهم يطعنون صدورهم بالخناجر وهذا ما كان يثير قراء الشرقيات[٤٩].

* * *

إن تركيا هي بلاد الإسلام، بلد السلاطين والباشا التي وسمها هوغو بالرقية، وإبراء السحر وتعزز في ما بعد حدس الشاعر، فالسلطان كان يشكو وهو في عظمة جبروته من (مرض العصر) كان يدع نفسه - كتب ماكسيم دوكومب - يعيش مثل إله متعب. وإنك لتضنه بقبعته العالية - كتب لا مارتين - أوروبيا.

إذن (إن هذا الرجل المريض يطبع وجهه الشاحب والمميز شعور بالكآبة) وقد كتب جيرالد دو نرفال عن عبد المجيد (أن لوجهه مع ذلك هيئة فوق بشرية، ناجمة عن ممارسة الجبروت)[٥٠].

إن الولوج إلى السراي أمر بالغ الصعوبة، وإنك لن تمر على الإطلاق من أبواب الحريم (إنها إقامة غريبة بيد أنها من أجمل ما يمكن على الأرض، مشهد مآس دامية، وليس هنالك من شيء يذكر بالمنزل الآسيوي

على الإطلاق، سوى العبيد السود والمخصصين والشبابيك المدرعة للحريم والأفياء والمياه الزرقاء للبسفور العظيم)[٥١].

أما السلطان فإنك لن تراه أبداً، ما خلا يوم الجمعة يوم الصلاة العامة، يرافقه المخصيون والعبيد والوزراء والايكوغلوات، والباشوات وهم يعتمرون الطرابيش المدرعة بالذهب، ويحفه الباقون بالركوع والسجود والدعاء، ويحمل العبيد من أعلاه المظلات العظيمة (شعار السلطة العليا).

(السيد في الظل بينما يشوى عبيده في الشمس) وفي يوم ابرام في الأخص تقدم على نحو رائع التقاليد العظيمة للاحتفالات الإسلامية[٥٢] ولغوتييه حساسية أقل لهذا الترف، من حساسيته لغموض القصر الامبراطوري الذي يضم (خلف نوافذه المكتبة، الكثير من الضجر والفتور والتراخي) ولكن أليس للسلطان حريمه على الأقل لتسليته من ممارسة السلطة؟ كتب غوتييه (لم أكن أمنع نفسي من التفكير بكل كنوز الجمال الضائعة عن العين البشرية... ربات الجمال اللواتي لم ينلن حضهن من المعجبين قط.... فما الذي يمثله دون جوان مثلاً من السلطان الذي لا يستقبل سوى الزنابق الأكثر نقاء، والورود الأكثر جهارة وعذرية... والذي لا تتوقف عيناه إلا على الأشكال الكاملة التي لم تمسها أية نظرة لمخلوق زائل!

ولكن أينبغي علينا تصديق غوتييه في هذا الأمر؟ (يا للسلطان المسكين! يصرخ نرفال. فهو ليس له سوى ثلاثة وثلاثين محضية. بيد أنه لا يفضل منهن سوى ثلاثة!)[٥٣].

ويوكل العاهل أو الملك بسلطته العظمى إلى وزرائه وباشواته وباكواته الذين لا ينون عن ممارسة أي ابتزاز، وتؤكد ملاحظات مارميه في هذا الخصوص حدوس فتور هوغو، فالغرامات وبتر الأعضاء والعقوبات البشعة سارية المفعول، فالوزراء (لا يوفرون على اداريبهم أي نوع من الإزعاجات

ولا أي نوع من التنكيد فقد يجلب كل الرجال الذين صادفهم في الشارع فيقول لشرطته (اولوموا لكل الجالسين على اليمين وضيوفهم، ثم اشنقوا كل الجالسين على اليسار) وآخر يذبح جميع نسائه أو يبيعهن في سوق النخاسة، لأن هنالك من دخل عليه وهو غاضب(٥٤) ومن الوضع السياسي تنبع الملامح المميزة للعرق، فهنالك عدد من الشرقيين كانوا قد تاربنوا وهذه هي إحدى الشخصيات من إحدى روايات غوبينو:

(كان يحرص أن يتم خدمة مائدته كما لو كان يحيا وسط قصبة السان اونوريه... فالآسيويون المتحضرون لا يرون الحياة الذكية إلا حياة النادي عند الرجال وحياة الغانيات عند النساء).

إنهم يمثلون استثناء (فالمتعة والقدرية ـ كتب لامارتين ـ هما النتيجتان اللازمتان للصراع الذي يتأجج بين محمد علي وإبراهيم باشا ضد السلطان)(٥٥) من هنا تأتي لامبالاة الأتراك.

(إن هذا الشعب لا يخلق شيئاً ولا يجدد ولا يدمر شيئاً.. هنالك الأشجار ليتفيأوا تحت ظلالها... ونافورات موارة ليحلموا على ضجيجها بصمت، وهنالك المساجد بمناراتها الرشيقة... إن هذا هو كل ما يلزم هذا الشعب).

هذه اللامبالاة كان قد أحبها بيير لوتي وقد وجد شكلها التام والكامل في عادةنوم القيلولة الأبدي وفي الكيف المحبب (كان كل شيء ينام بعمق ـ الخفير لدى الباب كان نائماً، وساسة الحمير الذين ينتظرون السيدات، كانوا نياماً على الأرجح في الأروقة العالية للحمام، وتجار التمر والرقي الجالسين على مقربة من النافورة، والقهواتي مع زبائنه في المقهى، وشياطين الألبان الضخام الذين يشكلون فوج الحرس أمام سراي الباشا، كلهم كانوا نياماً، بنوم البراءة تاركين المدينة للهجران).

وقد سجل ماكسيم دوكومب هذه الملاحظة بشكل ممتع (يا لها من حياة جميلة هي حياة الأتراك! إنهم سعداء تحت سمائهم الصافية، فهم يدخنون التبغ الفاخر في غلايين طويلة تضوع منها العطور، ويحتسون القهوة الشذبة، ويفكرون بالحريم الغامض الذي تضمها محضياتهم، ويحثون في الظل عن بقعة ليناموا فيها، يضطجعون في الليل ويستيقظون في النهار، فحيث يكون التركي تراه يمسك شبوقه (غليونه) بيد وفنجان قهوته في اليد الأخرى، ويظل نائماً في أحلامه اللذيذة التي يوفرها له بعض الأحيان الحشيش الممزوج بالتبغ)[٥٦].

إنهم يعيشون سعداء في الأفنية المجملة بالدواوين والمغطاة بخيمة ويحلمون على صوت دفقات الماء الهامس عند أحواض الموزائيك والفسيفساء والمرمر - وينامون عند قدوم المساء على السطوح العالية، إنهم يكتفون بتسليات متواضعة، فهنالك الحمام الذي يأخذونه في محمم تصل درجات حرارته إلى الأربعين (وحدهم الأتراك يعرفون كيف يستحمون)[٥٧].

ويعد الغليون (المتعة المفضلة للتركي)[٥٨] حيث تغشى اسطنبول سحابة من الدخان الأبدي وإن مزوداً من الغلايين بقيمة مائة وخمسون ألف فرانك ليس أمراً نادراً أن يمتلكه أحد وجهاء اسطنبول حيث ليس هنالك ما هو أكثر ملائمة للأحلام الشاعرية من استنشاق، وبنفحات صغيرة وأنت على وسائد الديوان العالية، هذا الدخان المعطر والمنتعش بالماء الذي يخترقه.. إنها اسبارطية التدخين حتى في المسرح الذي يؤلف القرقوز الفاحش مرة واحدة كل من برودروم وررووبير ماكير فتصغي إلى إنجازاته المخدشة وأنت تدخن الشبوق أو النرجيلة[٥٩].

وفي المقهى وهو في بساطته الساذجة، يذهب المرء للجلوس في

مساواة أخوية تحت ظلال الدلب، وعلى حصيرة من القش ليستمع إلى حكاية ملكة سبأ[٦٠] ولا يلزم أكثر من هذا ـ نزهة إلى المياه العذبة في آسيا، وسهرة تحت ضياء القمر على ضفة البسفور ـ لإرضاء أنصار الدين الذين لا يوافقون إلا على التبغ برؤية أفق جميل، وهي نسبة لهم متعة نادرة[٦١].

بيد أنهم يقنعون كذلك بما هو في الداخل: فالأوداليك أو الحرم مغلق على غير المؤمنين، بينما هم يفتحون كل قلبهم في السلاملك (شقة الرجال) إلى الغريب، وتقدم له أطباق من النحاس دون بياضات، وفي أواني الفضة السمك المطبوخ بالزيت، والخيار المطبوخ والمحشي (الطرشي) وكرات الرز، والخروف المحشي والبلاف (طعام شرقي من رز ولحم متبل) والكريب في العسل حيث يسقى بماء الفرات أو النيل أو بمياه الدانوب العذبة[٦٢] إن الأوروبيون يحلمون برؤية (عدن) وإن كان ذلك دون مواربة (خيمة الأشجار المزهرة وسط هذا الديكور الشرقي العرائبي الفاخر)[٦٣] وما عدن سوى الحريم أو الجميلات الغامضات اللواتي طالما تغنى بهن فكتور هوغو بروعة! فالشرق هو بلد الحريم الذي لا ينتظر (أزيديك) لكي يصفه وكم من مرة ظهرت أنواع من النساء وراء الأبواب المواربة واشتهين من قبل الأوروبيين من لبنان حتى البسفور... فنساء فلسطين يرتدين سراويل الحرير المعقودة بحزام من الساتان والمشدودة عند الكاحل بأسورة الذهب أو الفضة أو اللؤلؤ أو الزهور أو الليرات اللاصقة. وهنالك النساء الكرديات أنصاف عاريات بشفاه زرق وسيقان بلون الأكاجو، ويغطين رقابهن بشبكة من الليرات، ونساء دمشق اللواتي يسترن صدورهن المكشوفة العالية، إنهن يذكرن ببطلات الإنجيل أنهن نساء سيفورا اللواتي يرتدين ـ مثل نساء إبراهيم وإسحق تماماً ـ الجلابيب الزرقاء المعقودة عند وسط الجسد.. ويحملن فوق رؤوسهن المعتمرة بالعمائم

الزرقاء، الصناديق الفارغة، ويحملنها مملوءة ومستقيمة فوق الرؤوس بأيديهن الإثنتين، وهنالك فتيات يغسلن عند الينبوع وأخريات يرتدين أثواباً أكثر ثراء ورؤوسهن مغطاة بشرائط من الليرات والمسكوكات ويرقصن تحت شجرة عظيمة للرمان)[٦٤].

ومهما يكن جمالهن فإنهن لن يضاهين الفتيات المسلمات جمالاً (حتى وإن كانت جزمهن الصفراء تمنحهن هيئة الطيور كفيات القدم، هيئة قوية إلا أنها قليلة الجاذبية) إنهن لا يضاهين المسلمات جمالاً حتى وإن كانت أوشحتهن تجعلهن (يشبهن جزمة ضخمة)[٦٥] إن مشهد المنازل العالية بنوافذها الضخمة المشبكة بالكتائب ألا يجعلك تحلم بالمغامرات والألغاز، حتى ترى الأعين المصطلية للفتيات الحسناوات؟

كم كان بإمكان الرومانتيكيين أن ينسبوا كلمة نرفال لأنفسهم:

(إن النساء يخرجن بحرية، ويمكن للمرء أن يتبعهن في الشارع، وبإمكانه أن يبحث عن حل لغز هذه الأوشحة، ولا سيما أنك تشعر وأنت تفكر بهن، برعشة المغامرة الخطرة التي تدعوك للاضطراب لأن عقاب النساء الزانيات وشركائهن عقاب مرعب وينال ذلك استحسان العادات العامة، (وهذا ما يجري كذلك لدينا ـ يضيف نرفال ـ حيث يبرأ القضاة بشكل عام الجاني القاتل في حالة مثل هذه الحالة). أو أنهن يتعرضن للطلاق نتيجة لهذا التردد الذي لا يمكن أن يرد في الحسبان:

هنالك رجال يتزوجون كل شهر امرأة ـ لأن تعدد الزوجات باق بفضل الطلاق في تركيا ـ وإنه لمن النادر أن يكون للزوج أربعة نساء (يجيزهن القرآن) في آن واحد. وحتى وإن لم يتطابق الواقع مع حلمه فإن الرحالة المتشوق للغرائبية يدرس بفضول مضطر بعادات المرأة المسلمة[٦٦] المغطى وجهها بالفريجي أو الياشماق:

(أولاً أنت لا تتبين منها شيئاً، فتشعر بنوع من الانبهار أمام هذه الظلال الخفية التي تعصف أمامك في مظاهر متشابهة الواحدة مع الأخرى بيد أن لعين سرعان ما تالف هذا التساوي، ثم تجد تباينات مختلفة فتتحسس لأشكال من تحت الحرير الذي يغطيها، فتعصف بك نفخة مؤاتية أو قاتلة من تحت الدانتيلا إذ يدعك الخمار أن تنفذ إلى الوجه.. ويتحول الشبح الأسود إلى امرأة إن هذه اللفافات الفضفاضة من قماش الميدرونز ينتهي به الأمر إلى أن يفقد غموضه ويأخذ اليشماق بالتحول إلى شفافيات غير متوقعة.

إن بين الشرائط البيض في الوشاح، تلصف مثل الألماز الأسود أو مثل كواكب السبج، تلك العيون الأكثر روعة في العالم، العيون المتقدة فضلاً عن ذلك بالكحل. فأنت تلتقي بالنساء هناك راجلات أو جالسات في العربة أو ماشيات في الشوارع وفي البازارات وفي المقبرة وفي المياه العذبة (في عين مرمرة) حيث يرد في ذهنك انطباع مشاهدة حفل رقص من الأوبرا حيث المقنعون لا يحق لهم الكشف عن وجوههم).

أما في ما يخص الحياة العائلية، فليس بإمكانك أن تعلم عنها شيئاً سوى عن طريق الأوربيات اللواتي يتمكن من الولوج إلى الحرم، وإنك لتصاب بخيبة الأمل ربما إن أنت زرتهم لأن المكان يسوده نظام شبيه بذلك الذي يسود البانسيونات المحكمة بشكل جيد... وكل شيء يجري هنا بشكل أفضل مما تفترضه أخيلة الأوروبيين الفاسدة.

وربما كان تيوفيل غوتييه وجيرار دو نرفال يتفقان كل الاتفاق إن المرء الأوروبي يحمل عن المرأة الشرقية الكثير من الأوهام:

(إن نحن أدركنا مدى الكرامة والعفة في العلاقات التي تربط الرجل المسلم وزوجته فإننا سنتخلى عن كل سراب شهواني كان قد خلقه كتابنا

في القرن السابع عشر والذي يتعلق بفكرة الحريم كما وصفها لنا مؤلف رسائل فارسية).

وهكذا نجد الغرائبية المزيفة قد حوكمت ولكن الأفكار الأوروبية الفاسدة كانت صعبة المراس وصلبة لأن (أول سؤال نوجهه إلى الرحالة الذي يعود من الشرق هو التالي: (وماذا عن النساء؟).

لا شيء يزين بشكل أفضل رحلة مغامرة إلى الشرق العجوز سوى حلم الأوروبي في أن يكون عند منحنى أحد الأروقة المهجورة فتلوح له امرأة تسير خفية، وتدخله عن طريق باب سري إلى شقة مرينة، بكل صور الترف الآسيوي، وتنتظره جالسة على أريكة مربعة من قماش البروكار، فهي سلطانة تقطر بالذهب والأحجار الثمينة...

إنها ثيمة متكررة وزائفة قد وجه لها بيير لوتي نقداً لاذعاً في رواياته حين قال أن كل هذا لم يكن سوى اختراع: ونادرة هي الحبكات التي تدور بين الجاوور، والمرأة المسلمة، لأنه (ليس هنالك من ينوي أن يسخر من الإخلاص الزوجي في الإسلام). ويمكننا أن نقول إن فرص الحظ يمكن معرفتها بسعر الفضة ولكن مع الأرمنيات وليس مع المسلمات. وقد تفرد تيوفيل غوتييه بهذه الحبكة الساذجة والرومانتيكية جداً بيد أنها ربما تحمل شيئاً من المعقولية تجعلنا نعده صادقاً.

(كنت أسير بخطوات وئيدة في درب ضيق مرسوم بين القبور بعناية، فرمقت امرأة شابة تقف على مقربة من شاهدة قبر من المرمر كانت ملفعة بيشماق على قدر من الشفافية، وفريجي بلون أخضر فاتح، تميل وهي تقبض بيدها على باقة من الأزهار تهتز أمامها وعيناها الواسعتان متوقدتان بالكحل، وهائمتان بحلم أبدي. أفكانت هذه اليافعة تحمل باقة الأزهار لحبيب ما، أم كانت تتنزه ببساطة تحت هذه الظلال الحزينة العذبة؟ هذا ما

لم يكن بإمكاني أن أحدسه بيد أنها ما إن سمعت حدوات حصاني حتى رفعت رأسها فتمكنت من أن أتبين من تحت الموسلين الشفاف وجهاً جذاباً، ويقيناً أن عيني قد عبرتا بسذاجة وبالأحص عن انفعالي فاقتربت من حافة الطريق المحاذي ومدت بحركة تميزت برشاقة، وردة انتزعتها من باقتها.. وعند هذا الحد كانت مغامرتي التركية الوحيدة قد توقفت بيد أني لم أنس العيون السوداء الكبيرة بأجفانها المخضبة بالسورمة ولا الزهرة الثمينة التي ذبلت في كيس من الساتان الأبيض عند وصولي إلى باريس)(٦٧).

وإني أعترف له بهذه المغامرة، كما أني أحب بالقدر ذاته هذه الإيقاعات الأكثر تناغماً للمبرورين من السحر في هذه الصفحة التي لا تصرح بكل شيء والخالية تماماً من التزييف(٦٨) إن الرؤية المباشرة لهذا الشرق لم تعط ثمارها بعد إلى أدبنا، قبل أن ينجز بيير لوتي رواياته وبالكاد كان يمكننا أن نشير إلى الحكايات الممتعة للأميرة (بلجيو جوزو) التي قطنت سنوات عدة في اسطنبول، أو قصة دوملنوس (عيشه روزا) التي نشرت في مجلة العالمين(٦٩).

بجانب كل هذه الحكايات فضلاً عن قصص الحب التي ترسم (أحزان حياة الحريم) التي كان غوتييه قد أشار بحق أنها من الصعب بمكان الكتابة عنها، يوجد ذلك الفرنسي العاشق لفتاة شرقية فيسأم من عدم لا مبالاتها، كما أن هنالك نساء الحريم اللواتي يناصبن العداء لبعضهن وهنالك المكائد الأكثر تعقيداً.

ولنا الحق أن نعد الإشارات الدقيقة والملموسة على أنها إشارات تتمتع بدقة متناهية تعج بها حكايات الأميرة، بيد أنها تبقى حكايات رومانتيكية للغاية حتى وإن كتبت الأميرة (أن الأمر لا يتعلق بنا مطلقاً بحكاية خيالية)

وسنجد فيها وبفضل أسلوب نبه وصاف ـ لكنه من اللون ومن الشخصية ـ أكثر من ملمح بيتورسكي: ـ إن سن الخامسة والعشرين هو سن مميز حداً بين الحريم... والجيورجية هي مادة ذات قيمة فعلية لها الأمر وليس هنالك من يريد...

فليس من النادر مثلاً أن نجد رجلاً يقترن بفتاة صغيرة، ثم تقوم هذه الحكايات على إخراج طقوس الزواج ووصف البذلة وزينة النساء:

(في ذلك اليوم كن يحلقن شعورهن لكي يبدون أكثر لياقة لفراش البيك، ويتم إبدالها بذيول الماعز المصبوعة بالأحمر) وفي وصف حمام النساء وتطير الأتراك من بعض الملامح المشؤومة سنقتطف دون انقطاع من هذه الصفحات معلومات جمعت من الواقع: غير أن الأميرة ـ الرومانتيكية جداً تضفي على بطلاتها حساسية تبدو مرهقة شبيهة بالحساسية الغربية! وعلى كل حال فإن كنا وجدنا في هذه المجموعة من الحكايات بعض الملامح الدقيقة فلا يبدو أن مؤلف الأميرة قد جذب انتباهاً أو أنه قد مارس تأثيراً.

* * *

يظل الشرق شيئاً رسمه لنا الشعراء الرومانتيكيون! إن كان باستسلامهم لخيالهم أو باستحيائه من الواقع، والرحالة من لامارتين حتى فلوبير كانوا قد تعاقبوا عليه بكتابات مبتذلة بدأت تولد منذ العام ١٨٥٥، هذه الكتابات التي نبذها مارميه مستاء وربما لأنه أصبح هو الآخر مثالاً واحتذوا حذوه سريعاً حتى الوصول إلى آسيا الصغرى.

(لم يشهد الشرق على الإطلاق ومنذ الحروب الصليبية هذا العدد الضخم من الزوار في أيامنا هذه، ولم يثر ما يثيره اليوم من الأهمية، أنها أفواج من الفنانين ومن المتطلعين الذين يرغبون رؤية هذه الدفقات المستمرة

من اللازورد ورمال الذهب، هذه الآفاق المضاءة بالشمس المجمرة لكن أما يزال هنا من مشهد أخلاقي لكي يوصف وعامود ليقاس وكتابة هيروغليفية لتفسر؟

أو لم نتأمل ما يكفي من روائع البسفور والأطلال العظيمة في سوريا وأشجار النخيل المستلقية على النيل؟ أو لم نلج الأروقة المظلمة الجنائزية بين الأهرامات أو لم نلج حرم السرايات حتى أسوار الحريم المحروسة من قبل المخصيين؟ أفمن الممكن أن يكون لديك حتى الآن شيء ما لتخبرنا به؟)[٧٠].

وهكذا فما أن أصبح الشرق جد قريب من أوروبا حتى ذهبنا نفتش في المكان الآخر عن أحاسيس جديدة لا مثيل لها: فما أن حل العام ١٨٣٠ ومن أجل خدمة الاحتلال استدرنا نحو الجزائر وبعد ذلك بقليل جذبت أحداث مصر كتابنا إلى القاهرة التي أصبحت (موعد اللقاء السنوي لأفواج من السواح).

بيد أننا نصرخ قائلين كما فعل فلوبير (وداعاً يا مساجد وداعاً يا نساء موشحات وداعاً أيها الأتراك الطيبون في المقاهي) لأننا سنعثر عليهم من جديد في الجزائر العاصمة وفي الإسكندرية.

الهوامش:

١ ـ ذكريات أدبية ١٨٨٢ ج ١ ، ٢٥٨

٢ ـ أيمكنني أن أقدم هذا التعريف الذي كان اقترحه تيبوديه عن الشرق؟: (إن مصطلح الشرق يعني البلاد الحارة بأجمعها، البلاد التي تمتد من الهند إلى مراكش، أما العناصر لتي تؤلفه سواء أكانت من الخيال أم من الواقع فهي جد معقدة بإثارتها وجاذبيتها، إنه وجه الطبيعة الذي لا تقدم لنا أوربا

بديلاً عنه: إنه الصحراء حيث يتقاسم الشعر بعضاً من عناصرها مع شعر البحر، إنه سحر الإسلام وديكور دين يتناسب مع مناخ وإنسانية تناسباً تاماً، وفي عصر كانت عبقرية المسيحية تعلم فيه الفرنسيين كيفية النظر في الدين، والنظر إلى دينهم على أنه واقعية جمالية ونظام تزييني.. إنها أبهة الذكريات التاريخية ومشاهد البلاد الحارة التوراتية القديمة، ومشاهد العصر الكلاسيكي، حيث تذكرنا بمواقف وعادات في الأماكن ذاتها التي تطورت بها... إن فتح الشرق كان قد تم تدريجياً دون أن يكون هنالك إلهام مفاجيء على الإطلاق، مثل الهام الطبيعة الألبية لدى روسو أو الطبيعة الأمريكية لدو شاتوبريان لكنه الاستشراق الذي كان يشتمل ويشتمل على الدوالم ما ينقص الألب وأمريكا ألا وهم الرسامون...) دواخل النفوس، باريس، بلون ص ٣ ـ ٩٥.

٣ ـ ديديه، إقامة لدى شريف مكة ١٨٧٥ ص ٥ ، لامارتين رحلة إلى الشرق ج ١، ٦، ٨،١٢، ١٥.

٤ ـ عام في الساحل ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

٥ ـ أيبغي لنا التذكير هنا بالوسيلة التي خطها الرسامون من انعرز وديلاكروا إلى ديكامب وماري هارت وشابيرو وديهودنغ والطريق الذي كانوا قد عبدوه إلى الكتاب؟

٦ ـ (نصف حانوت ونصف نزل) كما يقول لوتي في كتاب الجليلي ص ٢.. انظر أيضاً لامارتين ج ١ ص ٢٠٣، ١١، ١٥، انظر ح. امبير، روما واليونان ودانتي ١٨٥٠ ص ٤٤١.

٧ ـ لامارتين، ج ١ ص ١٣٠، ١٤٠، ٢٢٥، ٢٥٦، ج ٢ ٤١ ـ ١٧٤،٥، نرفال ج ١ ٢٢٤، ديديه ٢٣٨، ٨.

٨ ـ نرفال ج ١ ٢٤٩ ـ ٢٦١.

٩ ـ لامارتين ج ١ ٢٠٩ ـ ٢٠٧، ميرميه من الراين إلى النيل ج ٢، ١٧٨، لامارتين ج ١ ، ٢١٧.

١٠ ـ لامارتين، ج ١ ، ١٦٨، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٢٢.

١١ ـ لامارتين ج١ ٩ ـ ١١، نرفال ج ١ ، ٢٣٧.
١٢ ـ لامارتين ج ١ ١٧٦، ١٧٨، ويضيف لامارتين إلى الوصف البيتورسكي ملاحظة طويلة عن سيرة الأمير انظر كذلك ج ١ ١٩٥، ٢٠٥ ـ ٢٠٨.
١٣ ـ نرفال ج ١ ص٢٩٤ ـ ٣١٠ كان نرفال أكثر موضوعية من لامارتين.
١٤ ـ لامارتين ج١ ١٩٥ ـ ٢٠٠ ـ ٤٠١ ـ ٤٤٠٤ ـ ٢٣٩ ـ ج ٢، ٤٩ ـ ٥٠، انظر مارسيليا لوز ذكريات الشرق ج ٢ ١٣٢، نرفال ج ١، ٣٠٣.
١٥ ـ لامارتين ج ٢ ٤٥ ـ ٤٦، سقوط الملاك غورلان ١٨٣٨ ج١ ٣، ١٩، ٢٠، ٤٠، لقد استمد الشاعر من رحلته إلى الشرق كل الألوان المحلية اللازمة لملحمته.
١٦ ـ لامارتين ج ١ ، ١٤٧، ١٦٦، مارسيليا ب لوز وس، ج ١ ، ٣٤٥٠.
١٧ ـ المصدر السابق، ٢٢٤، مارميه من الراين إلى النيل ج ٢، ١٩٧، ١٩٨٠.
١٨ ـ تأملات شعرية، هاشيت ١٨٦٠، كتب هذا النص في ١٨٣٤، من ٤١ ـ ٤٩ ـ ٥٦ ـ ٥٨٠.
١٩ ـ ملاحظات الرحلة غوتار ١٩١٠، ٢٨٢.
٢٠ ـ لامارتين ج ١ ٣٠١ مارميه من الراين حتى النيل ج ٢ ، ٤٤٨ ـ ٤٤٩ فلوبير ملاحظات الرحلة ٢٩١ ـ ٢٩٢.
٢١ ـ لامارتين ج٢ ٣٠٢ ـ ٣٠٦ ، ٣٠٨، ٣١٠، ٣٥٢، ٣٥٥، ٣٦٠، ٣٦١، مارميه ج ٢ ٢٥٩ ـ ٢٧١.
٢٢ ـ مارميه ج ٢ ص ٢٥٥ ـ ٢٦٤، ٢٦٨، فلوبير ج ٢، ٣٠٧.
٢٣ ـ لامارتين ج ١، ٣٨٤.
٢٤ ـ لامارتين ج ١، ٣٨٤.
٢٥ ـ لامارتين ج ١، ١٠٤، ١٠٧.
٢٦ ـ مارميه من الراين إلى النيل ج ١، ٣١، ٣٢، نرفال ٣٣٦.
٢٧ ـ غوتييه القسطنطينية، ٥١.

٢٨ ـ فلوبير ملاحظات الرحلة ج ٢ ص ١٧ ماكسيم دوكومب ج ١ ص ٢٦٢
٢٩ ـ لوتي الجليلي ٦٩ ـ ٧٠.
٣٠ ـ القسطنطينية ٥٣ ـ ٥٧، ماكسيم دوكومب ذكريات ومشاهد من الشرق ١٨٦٨، ٢٩٠ وما بعدها.
٣١ ـ يقصد مارميه (المترجمان).
٣٢ ـ ج. ج. أمبير، نزهة في آسيا الصعرى، اليونان وروما ودانتي ١٨٥٠، ٣١٩، ٣٥٠، ٣٣، كما أننا يمكننا أن نقرأ كذلك في انطباعات مارميه في الأعوام ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ في رسائل إلى المجهولة ج ١، ٥٠، ٨٤، وفي رسالة إلى د. موسى المؤرخة في ١ ديسمبر كانون الأول ١٩٤١.
٣٣ ـ ج. ج. أمبير، نزهة في آسيا الصغرى.
٣٤ ـ (انظر م. تورنو، مارميه في الشرق المجلة الحديدة ١١ أيلول ١٨٨٢ ونقرأ نص هاتين الرسالتين في المراسلات العامة لمارميه طبعة باترويه جورامبرسون ج٣ ١٦٥، ٢٣٠، ١٢٨، ٣٥ ـ ملاحظات عام ١٩٥٥، كان في صحبة امبير ومارميه عالم الآثار لونورمو الذي يمكن أن نعود بشأنه إلى (الفنون الجميلة والرحلات) ١٨٦١ ج٢ ١٢٠ ـ ٤٣٠.
٣٥ ـ غوتييه القسطنطينية ٧١ ـ ٧٤، لامارتين.
٣٦ ـ غوتييه القسطنطينية ٧١ ـ ٧٤، لامارتين ج ٢، ١٢٨
٣٧ ـ غوتييه ٨٤، ١٤٤ ـ ١٤٦، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٣١ ـ ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٥٨، ٢٦٦، مارميه من الراين إلى النيل ج ٢، ٣٢٣ ـ ٣٣٢، ٣٤١٠.
٣٨ ـ مارميه ج ٢، ٣٣٨
٣٩ ـ نرفال ج ٢، ٦٨
٤٠ ـ لامارتين، ١١٩، ١٢٣، فلوبير ملاحظات الرحلة ج ٢، ٤٥، غوتييه، ج ٢، ٢٦٧، ٢٧٩.
٤١ ـ من الراين إلى النيل ج ٢، ٣٤٤ ـ ٣٤٥.
٤٢ ـ لامارتين، ج ١ ، ١٠٥، ٣٦٧، ج ٢، ١٣١، غوتييه، ٥٣، ٥٧،

١٥٦، ١٦٤، انظر كذلك ماكسيم دوكومب ذكريات ومشاهد من الشرق وما يليها.
٤٣ ـ نرفال ج ٢، ١٠ ـ ١٣، غوتييه ٨٠ وما يليها.
٤٤ ـ غوتييه، ١٢٠، ١٣١، نورفال ج ٢ ٤ ـ ٥، لامارتين ج ٢، ١٤٣
٤٥ ـ اندريه بلور من سيلان إلى الفيليبين ١٩١١ ص ٤٠
٤٦ ـ نرفال ج ١، ٣٣٤، ٣٨٨، انظر مارميه من الدانوب حتى القوقاز ١٨٥٤، ٢١٧ ـ ٢٨٤
٤٧ ـ لامارتين ج ٢، ١٧، غوتييه ٢٢٠ ـ ٢٢١، نرفال ج ١، ٣٥، مارميه ج ٢، ١٠٠، بيير لوتي الجليلي، ٣٥، ١٤٠ ـ ١٤٣، ١٧٠ ـ ١٧٣، المبرورون من السحر ٢٠٠
٤٨ ـ غوتييه، ٨٨، ٩٧، ٢٠٧، ٢١٧، نرفال ج ٢ من ١٧ ـ ٢٠
٤٩ ـ لامارتين ج ٢، ٥٥، غوتييه، ١٣٢، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٤، نرفال ج ٢، ٦٨ ـ ٧٦ ـ ماكسيم دوكومب ٤٥ ـ ٥٥، غوتييه ١٣٢، ١٤٢، ١٤٩ ـ ١٥٤، نرفال ج ٢، ٦٨، ٧٣، ماكسيم دوكومب ٤٥، والصفحات التالية.
٥٠ ـ ماكسيم دوكومب ذكريات أدبية ج ١، ٩٥ ـ ٢٦٦، نرفال ج ٢، ٥، لامارتين ج ٢ ١٣٧ ـ ١٤٩، غوتييه ٢٥٠
٥١ ـ لامارتين ج ٢، ١٥٩ ـ ١٦٠
٥٢ ـ غوتييه ٨١ ـ ١٨٥، ٢٤١، ٢٥٠
٥٣ ـ المصدر السابق ١٨٧، نرفال ج ٢، ٨
٥٤ ـ من الراين إلى النيل ج ٢، ١٨٠ ـ ١٨٣
٥٥ ـ غوبينو قصص آسيوية ١٩١٣، ٤٢٥، ٣٢٦، لامارتين ج ٢ ص ٨
٥٦ ـ لامارتين ج ١، ١٠٦، أمبير اليونان وروما ودانتي ٣٤٣، نرفال ج ١، ٢٦١، ٣٤١، مارتشلو ذكريات الشرق، ٢٤٥، شارل ديديه إقامة لدى شريف مكة ١٤٥، وخصص في ما بعد بودلير مكانا للـ (كيف) في مؤلفه فراديس صناعية منشورات كريبيه غوتار ١٩٢٨، ٢٠١

٥٧ ـ لامارتين ج ١، ١٢٣، ١٤٤، ١٣٥، عوتييه ٢٣٧، نرفال ح ١، ١٣٣، دوكومب دكريات ومشاهد من الشرق ٢٤٦

٥٨ ـ غوتييه ١١١ ـ ١١٥

٥٩ ـ المصدر السابق ١٦٨ ـ ١٧٩، نرفال ج ٢ ٤٤ ـ ٥٣

٦٠ ـ المصدر السابق ١٠٠ ـ ١٠٦، نرفال ج ٢، ٥٧، ١٨٩، لقد اهتم رحالتنا بالشعر انظر لامارتين ج ١، ٢٦٣، ٣٦٥، ٣٦٧، ج ٢، ٥٢، ١٨٩، (مقاطع قصيدة عنترة) نرفال ج ٢، ١٤٨، ١٥٩، جورج صاند تستوحي في العام ١٨٥٣ ملحمة فارسية بعنوان (كوروغلو).

٦١ ـ لامارتين ج ٢ ١٤٥، ١٦٠، يقول غوتييه أن للأتراك إحساساً عالياً بالبيتورسك.

٦٢ ـ غوتييه ١٩٠ ـ ١٩٢

٦٣ ـ لوتي الحليلي ١٤٣

٦٤ ـ لامارتين ج ١، ٢١٧، ١٣٦، ٣٦٧، ج ٢، ٥، ج ٢، ٢٢١

٦٥ ـ نرفال ج ١، ١٦٥

٦٦ ـ المصدر السابق ج ١ ، ٢٧٨، ج ٢ ، ٢٢١، ٢٣٣ ـ ٢٣٤

٦٧ ـ لامارتين ج ٢، ٣٣ ـ ٣

٦٨ ـ غوتييه ٢٢٨، ٢٢٩

٦٩ ـ انظر الأميرة بل جوزو، امينة، امير كوردي إلخ المنشورة في مجلة العالمين للعام ١٨٥٦، ١٨٥٨، تحت عناوين حكايات تركية آسيوية أو الحياة الحميمة والحياة البدوية في الشرق المصدر السابق ١٥ ـ ديسمبر ١٨٥٦

٧٠ ـ الرحالة الجدد س. د. (١٨٥٠) ج ١، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٩٠، فلوبير ملاحظات الرحلة ٢٣٠

الفصل الثاني

الرحلة إلى الجزائر

إن كنا قد حملنا منذ العام ١٨٣٠ عن الشرق الأدنى، فكرة تقليدية - إلا أنها تفصيلية في مجملها - فإن أفريقيا بقيت بلداً غامضاً وخرافياً - أو بلداً معروفاً بشكل سيء - من خلال ما ذكره علماء العصر الإغريقي والرحالة الذين بقيت علاقتهم بها علاقة مشتبهاً بها إلى حد ما.

إن هنالك في كلمة أفريقيا، كتب دوماً:

(شيئاً من السحر ومن الهيبة التي يفتقر إليها أي جزء من أجزاء العالم، فقد بقيت هذه الأراضي وعلى مر العصور أراضي السحر والأعاجيب) وحينما يتعرض دوماً إلى هوميروس، وهيروديتس، وسترابون فإنه يستحضر الوحوش التي كانت تقطنها:

(هذه المونوكولات التي كانت تعدو على ساق واحدة كانت تبز بسرعتها النعامة والغزال، وهذه الليوكرات كان لها سيقان الإيل ورؤوس الغريري، بينما كانت أعناقها وأذنابها وصدورها تشبه الأسود، وهذه الأبسيلات لها لعاب يشفي لدغة الثعابين)[1].

إن أفريقيا، كتب فرومنتان في العام ١٨٥٢ (هي كلمة سحرية تدعونا إلى الحدس، وتدفع هواة الاكتشافات إلى الحلم)[2] نحن نعلم أنها كان عليها أن تجتذب المستكشفين، بدءاً من رينيه كاييه، وحتى القائد مارشون، (لقد كنا في جهل مطلق تقريباً - يقول م، تايار - حتى العام ١٨٣٠ بكل ما يتعلق بالجزائر) بينما لم يكن الأمر هكذا في ما يتعلق بمصر، وليس من العسير أن تقابل رواية رينار حول الجزائر (البروفنسال) والتي هي رواية

غرائبية تقليدية، مع مؤلفات جادة وموثقة بشكل جيد عن مصر وصف مصر لـ (بنوا دو مابيه ١٧٣٥)، الرحلة إلى سوريا ومصر (فولينه ١٧٨٧)، وكما يمكننا أن نذكر بشكل خاص أعمال العلماء الذين رافقوا بونابرت إلى ضفاف النيل: الرحلة لـ (فينون دو نو ١٨٠٢) وصف مصر ـ تسعة أجزاء بحجم متوسط، وأربعة عشر جزءاً مزينة باللوحات ـ كتب عنه ج. م. كاريه بأنه مأثرة رائعة في العلم الفرنسي، وقد ذهب شاتوبريان إلى مصر ليبحث فيها عن صور يستخدمها في مؤلفه الشهداء، عند التحاقه بأسبانيا، وهناك التقى بـ(ناتالي دونواي). كما مر بها سياح فضوليون مثل: الكونت دو فوريان، وابد دو مونتويه، ومارسيليوس، ومارمون، وأوزيب دو سال، ووصلها شامليون كبحاثة، وجوزيف ميشو، كمؤرخ للحروب الصليبية، وقطنها السان سيمونيون كمستوطنين، وبريس دافين كعالم آثار، وتعد لوحات جرو، وجيرودي، وثائق غرائبية بقدر ما هي صفحات في التاريخ المصري، ودخلت مصر الموضة في الحال، وبشكل أكثر دقة وواقعية من فلسطين وآسيا الصغرى، ومنذ ذلك اليوم أصبحت مصر والجزائر، أكبر بلدين في أفريقيا الشمالية، في اجتذاب الروائيين والرحالة وأصبحتا مصدراً لإلهام شعرائنا، ويمكننا أن ندرك وفرة ونوعية النتاج الأدبي الذي أثارته مؤلفات محددة مثل (الرحالة والكتاب الفرنسيون في مصر، م. ج. كاريه) و(الجزائر في الأدب الفرنسي م. ش. تايار) والذي أحصى ما لا يقل عن ٢٢٨ قطعة بين قصيدة وديوان شعر و٢٤٦ رواية ذات قيم أدبية متنوعة بين العامين ١٨٣٠ ـ ١٩٢٤ وهذه المجموعة مكرسة للجزائر وحسب.

إن بضعة أسفار على قدر من التقليدية لتيوفيل غوتييه، وديوان لجول متر هو الشرقيات ١٨٣٣ وقصائد قصيرة أيضاً ل. ماجلي بونيار، لا تكفي لأن تسجل بأن شعراءنا يدينون بالكثير للجزائر، فلا الاستيطان، ولا

الاجتياح، ولا البلد ذاته قد ألهم الرومانتيكيين أو البرناسيين وذلك لأن المادة كانت متنوعة والكنز كان مفتوحاً (ولم يستخرج من هذا الكنز حتى الآن سوى القليل مما يصرح به)[٣] وينطبق الحال ذاته على مشرح الفودفيلات، والميلودرامات المستوحاة من الجزائر، والتي لا تمتلك أية قيمة أدبية، ونتذكر فقط أن تيوفيل غوتييه كان قد قدم مسرحيته (يهودية قسنطينة) في العام ١٨٤٦ فلا (الواحة) لـ (حوليان) التي مثلت في العام ١٩٠٣ ولا (سيمون) ولا (ليونورمو) التي مثلت في العام ١٩٢٠ ولا (تحت ظلال الحرم) لـ (ينيار) في العام ١٩٢٧ ولا فندق أطلس لـ (سالكرو) تعد أعمالاً مهمة في تاريخ الغرائبية، فإن كانت مصر قد أثارت خيال (بويه) والتي قدم وثائقها له غوستاف فلوبير وماكسيم دوكومب والبارناميون فإن هذا الأمر كان قد حصل مصادفة وحسب، لقد كان الروائيون والرحالة هم الذين اهتموا بهذه الأقاليم.

* * *

(ما اسمك؟ ـ علي طالب. ـ موطنك؟. ـ الصحراء. ـ سنك؟ ـ ليس هنالك سوى الله الذي يحصي الأيام. ـ مهنتك؟ ـ كل ما يأمر به الله. ـ هل للماي قطعان عديدة؟. ـهنالك النجوم في السماء، وحبات الرمل في الصحراء، والبدو في أرض الخليج، والعصملية والكولوغي في المدينة الكبيرة. ـ أتود العودة إلى بلدك؟. ـ هاأنذا فيها.).

اقتطعت هذا الحوار بين فرنسي وجزائري من كتاب (اوزيب دو سال) (علي الثعلب) المكتوب في العام ١٨٣٠ وهو عبارة عن رواية ثقيلة نوعاً ما إلا أنها لا تخلو من الأهمية[٤].

إنها تلخص بشكل جيد فكرة القدرية التي نحملها عن العرب في أسلوب معيشتهم، وهي الفكرة التي تباينت من حيث استغلالها حتى

أصبحت أكثر دقة عند مارميه، ودوما وغوتييه ومن ثم أصبحت أكثر حيوية عند ديوديه وفرومنتان وأخيراً استغلت من قبل لويس برتران.

إن رحلة مارميه هي رحلة رسمية لأنه كان يرافق فيها سالفاندي رئيس الوزراء الذي رحل لزيارة المستعمرة الجديدة، فكانت رحلة سريعة والجزائر العاصمة كانت قد تفرنست آنذاك، وإن كنت تلتقي فيها بالغيد الأوروبيات الماجنات فأنت تلتقي بالقدر ذاته بالمورسكيات المحجبات، وكان السماسرة والمضاربون يجتاحون المدينة ليعمروا فيها المقاهي، وهذه الفنادق الضخمة (التي تشبه الثكنات الشاسعة) مع الآسف!، وكان المستوطنون الرهبان والعلمانيون يغوصون في أعماق الأرض، ويستحضر مارميه في فتح (ستاولي) الوجه العظيم للقديس أوغسطين، وكانت الحقول تعمر لتشبه الحقول النورماندية والمدن الصغيرة في الداخل: (اوليانز)، (فيل)، (تشرشل)، (مستغانم)، والموانيء: (وهران)، (بوجدة)، (فيليب فيل) تذكرنا بالمدن السلمية البروفنسالية الساكنة في فرنسا، ولم تكن سوى (قسنطينة) التي حافظت وبشكل كبير على لونها المحلي، ويظل كتاب مارميه ريبورتاجاً عظيماً إلا أنه (سطحي وكامد) شيئاً ما[٥].

* * *

ثمة كتاب سطحي آخر، إلا أنه أكثر تلويناً ومغايراً بتسلياته ومتعته وهو كتاب (لوفيلوس) لـ (دوما) الذي يروي قصة رحلة بحرية على سواحل أفريقيا، وعلى عادته، فإن دوما يصطاد بلا حياء بالسنارة، ويترك نفسه مستسلماً لأفكار عديمة الجدوى، إلا أنه كتاب يخلو من الملامح البيتورسكية الدقيقة، سواء في وصفه الإجلالي لكرامة ووقار وجمال العربي أم، في وصفه لقذارة اليهود وضجيج أسواقهم وربما يدلنا هذا المقطع بشكل جيد على براعة وصفه:

(كان الحانوت فرنا مجوفاً في الجدار، حيث يقف البائع اليهودي عند حافته جامداً وعيناه متشيتان، وغليونه في فمه، وكانت إحدى قدميه منتعلة والأخرى عارية..) وتفرز العديد من ملاحظاته ملاحظات زوار اسطنبول، فهو لا يتردد في وصف المقاهي والحريم، ووضع النساء، وزينتهن، وغنجهن، وكيدهن الناتج عن صراعهن غيرة على سيدهن!

(كلما أكثر العربي من نسائه كلما توسع ثراؤه، فهذه تحلب الأبقار والنعاج والنياق، والأخرى تذهب إلى الغابة والأخرى إلى النبع، لتسد احتياجات الخيمة والمنزل، أما الزوجة الأخيرة وهي المفضلة فهي تستمتع بحياة أقل جهداً أو شقاء من الباقيات)[٦] بيد أن هذا الوصف، لا يتضمن ما هو جزائرياً صرفاً، إنما هو وصف عام ومألوف في كل البلاد الإسلامية، من بيروت إلى العاصمة الجزائر، وما هو أكثر غرابة وامتاعاً هي ملاحظاته حول العدالة العربية التي كانت أقل شكلية، وأكثر عدلاً من العدالة الغربية[٧].

ومن غير المستبعد من أن دوما كان يكرس جزءاً من الغرائبية العسكرية في أعماله، فالاحتلال كان قد أنجز لتوه، وكان دوماً رائداً لكل من (كارنموم) و(مالك اورلان) اللذين سيتحدثان في ما بعد عن الحياة الفظة والقاسية لمغامرات رجال الكتائب والفيالق المحتلة، وإن روائي (مونت كريستو) كان متحمساً للماثرة، وللمزح التي دشنها ابن آوى، والزفير، وكم هي عديدة الطرف التي كان يرويها لنا، فكل واحدة منها تفوق الأخرى بغرابتها ومذاقها وأنا أتذكر في سبيل المثال حكاية الزفير الذين باعوا إلى مهاجر، خفير ثكنتهم[٨].

إن هذا النوع من الغرائبية يقود إلى حكايات أخرى، مثل حكاية (اش والابرش) و(أصحاب البودر ١٨٩٩) وليس هنالك من ثيمة تسحر لبه

أكثر من ثيمة الصيد، فهو يروي الحكاية في أدق تفاصيلها وهي حكاية جيرار صائد الأسود):

(أو تعلم أن الأسد يحترم الشجعان.. ويجل النساء، بيد أنه ينقض دون رحمة على الجبناء؟) وإن العربي عندما يلتقي أحد الأسود فبإمكانه أن يفلت منه لو علم كيف يتحدث إليه.

(آه... هذا أنت سيدي جون بن جون، قال له أتعتقد أنك تخيفني.. أنا فلان بن فلان؟ أنت نبيل وأنا نبيل، أنت شجاع وأنا شجاع، دعني أمر إذن مثل أخ لك، لأني رجل البودر، وقبض على حسامه بيده وطرطق على حمالته، ثم وخز الأسد الذي تنحنح قليلاً ودعاه يمر).

إن كل هذا لهو فهو أمر ممتع للغاية، إلا أنه لا يذهب بعيداً[٩] فصفحات غوتييه فيها من الألوان ما يفوق هذه الصفحات، وإن انطباعاته الحية والواضحة في كتابه (في أفريقيا) تترجم في لوحات تتجاوز الحد قليلاً وإن كانت تبدو في أيامنا هذه قد فات عليها الزمان، بسبب مفرداتها التي هي إما تقنية للغاية، وإما عنيفة للغاية، فـ (فرومنتان) كان قد عودنا على بساطة أكبر، وكان ديديه يمتلك روحية أعلى بيد أن غوتييه كان يرسم الخطوط، ويحدد الأحجام وتنافر الألوان، فهو لا يتراجع أمام التفصيلات الواقعية وكان يحاول أن يرينا المجازر السابحة بالدم، حيث تنتشر الأمعاء والرئتان في العراء، وكان لا يحدثنا عن الريف إلا قليلاً، ومن الواضح أنه لم ير في الجزائر سوى المدن:

(كانت قسنطينة جاثمة على صخرتها مثل وكر الصقر، ووهران المنحنية كانت على هاوية الخضرة، بينما كانت الجزائر البيضاء تتكيء على جبلها، ويسبح رأسها وقدماها في اللازورد الأبدي).

هل كان غوتييه مرتاحاً في متاهة القصبة ـ إن أي جزائر كانت مثل

ربطة الخيوط، حيث شحذت عشرون قطة، أظافرها عزاج مرتاح) حيث الليل وحيث منازل الليل دون فتحات، وهي تأخذ أشكالاً حائرية، إلا أنه كان يتذوق كذلك ضوضاء ساحة الحكومة، فهي تشبه سبة للفرنسيين (تورتوني) و(جادة الإيطاليين) وسبة للمارسيليين هي (الكانبير)، ونسمة للإسبان هي (لاناتراد لسرول)، وللإيطاليين هي (لوعروسو)، أما للسكان فهي (سراي القافلة).

فهنا تمتزج جميع اللهجات، والأزياء، والبرانص، فترى الزنجيات بوجوههن الحيوانية وأجسادهن تتحدى المرور بقاوة مطهرها وجمالها، وقد كانت جاذبيتهن (تتنوع من الشمع إلى الشوكولاته، في اللون، ومن القثاء إلى القرع في الشكل)، ويتسكع عوتييه أمام الحوانيت حيث (نصف طبقة شفافة تتلألأ تحتها غلايين مزينة بالقنازع، وأفواهها ـ العلايين ـ مصنوعة من العنبر أو من المحار أو من الحاد، وقوارير مادة الورد، والستر المطرزة والمديلة بالكشاكش، والبابوجات المتدرة، والسجاجيد الثقيلة، وأنطقة الحرير)[١٠].

أما عن داخل البلاد، فهو لا يصرح إلا بالقليل من الأشياء، إذ لا يميز إلا بالكاد بين النباتات (أشجار الصبار بأنصالها الحديدية البيضاء المطلية، والكالكتوس بشفراته المشوكة، وأشجار التين بأوراقها المصقولة، وأشجار النخيل التي تشح يوماً بعد يوم مع الأسف) وعلى المنازل (قطع اللحم الضخمة بهيئتها الجثثية تتأرجح في الواجهة، وتسيل شلالات أحشائها إلى الأرض، بيد أن هذا لا يمنع البدو من الإقبال بشهية كبيرة، إلى الطعام الذي يطبخ في هذه الجحور، أو المغارات السود، بلون السخام والحمراء بلون الدم).

* * *

وبالمقابل فإنه يصف طويلاً، رقص الموريسك في صحن الدار، الذي يضيئه القنديل، وسط العرب المقرفصين، وتذكره الراقصات بأعينهن المدلهة والمغرمة، بنساء ديلاكروا و(البعالق العجائز، وبنات عمة ساحرات ملكبث) حيث وجوههن تشبه الغيلان، أو الصطارج، وهن يعزفن الدرابك إذ تتمايل الراقصات على الإيقاع، ويترنحن في سلسلة من الأوضاع ـ الشبقة والمخدرة ـ لكن دون دعارة، ولحركاتهن طابع غامض وغريب، وقدري، ومقدس) ثم تصبح الموسيقى أكثر حدة، ويصبح الإيقاع أكثر إثارة، (ويعمل صراخ النساء على تمجيد النخاع في العظم) إنها هلوسة معربدة ومنهكة (إنه اهتياج فاجرات العهد القديم) والذي يبلى غوتييه أمامه منبهراً ومنتشياً[١١].

كانت أياماً عذبة تلك التي عاشها في بليدة، أمام غابة البرتقال أو في مقهى حكيم، بين بدوي وقبائلي.

لقد ذهب بورباكي الذي كان في ما مضى قبطاناً إلى قبيلة (بني خليل) ليشهد رقصات (العيساوي) وكان الرقص ذلك اليوم وسط فناء مبيض بالجص، ومحاطاً بالأروقة وحيث الأشباح البيضاء ـ النساء ـ ترتعش تحت سماء الأزرق النيلي، ثم سمع نشيج طفل يذبح وضحكات الغيلان، لقد شهد ذلك اليوم نشوتهن المآتمية، وتوباتهن المسعورة، وتشنجاتهن الشيطانية:

(كان كل شيء يتراكض ويرتجف ويقفز وينقنق ويعوي في صخب بشع.. وصار إلى أن تسحب الضفادع والسرطانات والثعابين من أكياس صغيرة، وأن تلتهم وهي حية... مع علامات لذة لا تضاهى... فهنا تراهم يلعقون الرفوش والمعازق المجمرة بالنار، وهناك من يمضغ الجمر المتقد، وكان الآخرون يستقون من داخل الطناجر الفخارية

السميط الممزوج بالزجاج المسحون وهشيم الخزف ليلتهمونها، فاصبت بدوار مرعب)[١٢].

وهنالك قصة لمارميه اسمها (جومان)، لها اللهجة المتهكمة والمظللة ذاتها[١٣] وهنالك بضعة صفحات لموبسان يسجل فيها انطباعات رحلة تحت الشمس، والجادة الشاردة الهائمة، وفيها قصص مثل (الوما)، (تحد المساءات)، (محمد الوغد)، و(ماروكا)، وهنالك الحكاية الممتعة لبيير لوتي (السيدات الثلاث من القصبة) فهي تبين لنا الأهمية التي تحتلها الجزائر في الأدب الفرنسي، فالجزائر كانت قد أسرت قلب موباسان[١٤].

(مدينة الثلج تحت الضياء الباهر... شلال متفجر من المنازل، وكذلك الجنوب بصحرائه المجهولة، وامتداداته اللامتناهية والكئيبة، يكفي للعين هذا المشهد الذي يسيل ضياءاً، والخريف المقفر والموحش، ويكفي الفكر ويرضي الإحساس والحلم لأنه تام ومجرد... كل شيء يحترق).

إن ملاحظاته حول الاستيطان أو اللامعنى الإداريين، لا يعنيان الغرائبية، لكنه عندما يرسم الحياة الحرة للبدو تحت الخيمة، وجمال (ولد نايل) وعندما يحاول أن يحلل الحياة الحسية للمستوطنين المغرمين بـ(الفتيات)، بوجوههن الصنمية، واللواتي يمنحن أنفسهن دون أن يتخلين عن ذواتهن، أو حينما يصف الأوروبيات اللواتي يتهيجن عند هبوب الريح الشرقية، فإنه يحرر سريعاً وبرصانة الملامح في الحياة الجزائرية في ذلك الحين.

(إنها جمهرة المحليين المضرجة بالقذارة، والتي تفوح منها رائحة الحيوان) إنها الواحات و(بحيرات الأوراق الكثيفة المنتشرة على الكثبان الرملية - محيط كامل استحال إلى غبار) أو أنهن اليهوديات الجميلات جداً عند الأربعة عشر عاماً، ومن ثم وحينما يكبرن يتحولن إلى بدينات

بشناعة حيث تراهن بأجسامهن التي تشبه الحيوانات المنقرضة مثل فرس النهر (كتلة من اللحم الصاخب والمتموج، والمنتفخ، ذلك اللحم المتلاطم)، إن في الريف لوحات مقدسة:

(مرة على الأقل في اليوم الواحد سنلتقي، تحت أحراش الزيتون، أو في ركن من أركان غابة اليوكالبتوس هاربين إلى مصر)[١٥].

أما لوتي فإنه يصف إطلاقة النوتي لثلاثة آخرين في ثلاثة رواف، في الأحياء القديمة للعاصمة الجزائرية وحكايته التهكمية، المليئة بالمزاح، وبالشعر في آن واحد، وفي منتصف الطريق بين الحكاية الحادة والحكاية الساخرة، ونجد تزاوجاً بين الواقعية الخفية، والفانتازيا الأكثر لذة.

فالجزائر قد فسدت بنظره في ذلك الحين (فاللون قد بهت ولم تعد حياة العاصمة الجزائر، كما كانت عليه وسرعان ما نجحوا - كتب - في جعل هذا البلد أقرب ما يكون للشيء المبتذل شبيه ببلدنا، وحيث لم يعد هنالك من شيء حقيقي سوى الشمس)[١٦].

ومهما كانت بيتورسكية وتلون وانفعالية هذه الصفحات، فإنها ليس لها أهمية مؤلفات دوديه أو فرومنتان أو كما كتب لويس برتران وأسلافه المنتظرون[١٧].

* * *

ينبغي أن ننوه بالمغامرات الخارقة لطارطران تارسكون، واستذكار وصوله إلى العاصمة الجزائر - نشر الغسالة على تلة بيدون - فبدأ تأثره وانفعاله: - إلى السلاح - إلى السلاح.

فيرى المركب عندما داهمه التورروا أينبغي أن نصف صعقته عندما يترك المركب؟

(يهبط، فيسقط في منتصف التارسكو) فتبدو خيبة أمله! (ما عساهم

يكررون علي عن شرقهم هذا فليس هنالك القدر ذاته من النور هنا كما هو موجود في مارسيليا).

ونحن نستذكر أول ترقب له، ونتذكر كيف كان يحيا في ديكور شرقي تماماً، وتحت سماء مرصعة بالنجوم، وتحت إحدى الهضاب التي كان يظن أنها الأطلس.

(إنه بالقرب من مصطفى فيقتل حماره، آه يا طرطران المسكين! إن كان هنالك من يعتقد بالغرائبية وإن كان ثمة من يشتغل عليها فإنه (طارطاران تارسكو) وذلك لأنه ما إن لامست إحدى المورسكيات الجالسات في العربة ببابوجها نعله الثقيل حتى صعق..) إنها قصة حب في الشرق (يا له من شيء مرعب...) لكنها تبقى مع ذلك هي الشيء الذي لا يمكن لطارطاران أن يتراجع أمامه، فينسى الهدف من رحلته:

يا أسود الأطلس! هل تنامي.. فيرمي بنفسه في المدينة العالية بحثاً عن المجهول، ويكتب إليها رسائل بأسلوب شرقي على درجة رفيعة المستوى، ويصبح مسلماً لكي يأسرها فيسمى نفسه (سيدي طرطران بن طرطري)... ويكتشف أن مغربيته هي فرنسية من مارسيليا!

إن فنطازيا دوديه الرفيعة تسترسل بحرية كبيرة! ولنتذكر المقطعين الجميلين الذين سطرهما في الجرأة على الطرق الجزائرية، والعربات التي أبعد عنها، أو المشهد المضحك الذي نرى فيه طرطران وهو يتسلق إحدى المنارات ويصيح بحقد!. إن وراء هذا الانفلات الروحي ثمة ملاحظات أكيدة إنها تلك التي نجدها في (حكايات الاثنين) وهي النقد اللاذع والمحق للإدارة التي تبحث عن صيغة لا يمكن العثور عليها، وتوليفة مسلية لما يمكن أن تكون عليه الجزائر في ذلك الحين بعيون الباريسي النبه، وبعيون البروفنسالي صديق المزحة، عيشة تطورها الرائع، ومع ذلك، وبالرغم من

دقة ملامحه، فإن بإمكاننا أن نلوم دوديه بأنه بالغ وغالي من روح (مسرح الجادة)، ولذا ينبغي أن نعود إلى الواقعيين اللانقياء، المراقبين وحدهم.

* * *

ينبغي علينا أن نذكر كل شيء بخصوص كتابي فرومنتان عن الجزائر، لثرائهما ولمقدار ما يحملانه من جدة إلى تاريخ الغرائبية، فليس هنالك في هذين الجزئين أية راحة، ويبدو أن فرومنتان هو كاتب من كتاب الغرائبية الذين سجلوا ببساطة، وعلى الطبيعة كل ما رأوه دون أن يندهشوا لرؤيته.

حيث أنه لم يكن يضع نفسه في المشهد على الإطلاق، ولا يظهر إلا بشكل خفي، ولا يفرض نفسه أبداً ولا يدفع بوسائل مصطنعة على إيجاد إقرار على القراء

ولأنه يمتهن الرسم فإن مفرداته كانت خفية، ومغايرة عن مفردات تيوفيل غوتييه، فهو لا يلامس بشكل أفضل المادة، لأنه يفاجئنا بشكل أقل، وهو لا يبحث عن تأليف كتاب، بينما يكون خضوعه للموضوع خضوعاً تاماً، وهو بالكاد ـ إن صح التعبير ـ يسعى إلى إدامة ودعم أهمية كتابه (أفكان هذا الأمر ضرورياً حقاً؟) وذلك بوساطة تنويع لوحاته ـ سواء أكانت مشاهداً للعادات أم مشاهداً طبيعية، والتي يمزج بها هنا وهناك ملاحظات سايكولوجية أو ميتافيزيقية، ولذا فإن هذا الكتاب الذي يعود إلى هاو، هو أكثر الكتب كمالاً، بين الكتب المكرسة في هذا النوع من تاريخ الجزائر، ولأنه كاتب واقعي، فهو يتجنب كتقليدي فجاجة فلوبير، أو زولا، وهو يصف ما يراه بالضبط، دون جمل وبكلمات منتقاة ويرسم المشهد بدقة، ويمسك بالسطور ويسجل الألوان التي تلج النفوس.

فهو نادراً ما يستخدم كلمات عربية تحدد بلمسة حية اللون المحلي، إنها

وسيلة رسام يعلم كيف يبرز خفية لوناً مكفهراً بآخر ساطع، فأسلوبه هو أسلوب تقليدي مصنوع من كلمات مألوفة، بيد أنها دقيقة لا تثقل عليه النعوت. ولكن كتاباه يملكان أهمية أخرى غير ما تقدمه لنا من وصفة بارعة، ولطالما عاش فرومنتان بحميمية الحياة الجزائرية، أكثر من رحالتنا المتعجلين الذين لم يعيشوا حقاً حياة الشرق. أفيكون رأى فرومنتان الجزائر أكثر مما يجب كرسام وكتقني؟.

إنه يرتعب ولا يخفي ذلك فكرة أن يكون البحث عن ما يسميه الفضول ـ ونحن نسميه البيتورسك ـ ويشكل أدق الاكزوتيك أو الغرائبية[١٨] ولأنه لا يريد أن يكون مؤذياً بشكل عام، ولذا فإنه يرغب تجنب المتابعة المنتظمة والمستمرة لهذا البيتورسك والبحث عن إحداث الأثر بأي ثمن:

(إنها البساطة العارية والخالية من الادعاء هذا هو ما يفضله فنجد قصة المرأة العربية حواء، التي كان يرغب بها، كانت أرملة أو مطلقة، وبالكاد تجرأت أن تزيل الوشاح عن وجهها، حتى وُضع في حكايته لمسة عاطفية خفية).

ويسجل في جزأي كتابه انطباعاته كشاهد لا يضاهيه شيء بدقته وأمانته حيث لا شيء يأتي ليقلب الإحساس الأول، فهو لا يكشف عن الإسلام أي شيء على الإطلاق، وإن ملاحظاته لا تضيف شيئاً لتلك التي ذكرت في أماكن أخرى من قبل رحالة آخرين. فالعادات هي ذاتها، سواء كانت في اسطنبول أم في الجزائر، ولكي يسجل فرومنتان بحق هذا الانفصال بين المجتاحين وبين الذين يقع عليهم الفعل يقول:

(أسنفهم أنفسنا؟ أسنفهم يوماً ما؟ لا أظن ذلك) فالعرب (يخشون حتى أعمالنا الخيرة) إننا سنبيدهم بالأحرى أكثر مما نجعلهم يخضعون

لنا)... ويقابل فرومنتان وبشكل صائب رخاوة متمدني الجزائر مع عظمة وكبرياء وحذر وحيادية أو استقلال العربي البدوي، أو الغريزة المحاربة للعربي الذي يبقى في الحياة بفضل برودة أعصابه ذاتها) فالعرب شعب اقطاعي، يجري وراء المغامرة والمتمدنون شعب أشبه بالأنثوي يمد المدن بالصناع والحرفيين وأصحاب الحوانيت والكتاب والبرجوازيين، والاختلاف البارز بين الاثنين هو أن المتمدن يمتطي البغلة، بينما العربي يمتطي الحصان كما أن حياتهم الخاصة هي أيضاً، لا يمكن اختراقها، فالمنزل في الجزائر هو سجن مُحكم الإقفال. وبإمكانه أن يكون فضلاً عن ذلك، مكاناً للمتع وللمسرات[١٩].

ويمكننا أن نجد في العاصمة الجزائر الحديثة ـ شيئاً شبيهاً بجزء من شارع باتنيول ـ حيث يسير جمهور مسالم هم العرب، وجمهور صاخب هم الأوروبيون ـ التي هي في قلب العاصمة القديمة ـ ترى المواطن المحلي عند مفترق طرق سي محمد شريف، في سبيل المثال، وهو ينظر إلى البحر في غاية الجمال بتضادات الظل والشمس، وترى المسجد، وحوانيت الحلاقة، والمقاهي، حيث للرسام مكانه المميز وأصدقاؤه:

(الطرزي سي إبراهيم التونسي، الذي قدم له زهرة في مساء ما، في منتصف الليل؛ وسي حاجي عبد الله، أو نعمان أفندي الذي يحب الحشيش، فبأي فضول يختلط بالحياة الشعبية، فنجده في عيد الباقلاء في سبيل المثال، وعيد الزنوج حيث يتفجر فوق العشب الطري، فن الزخرفة وتعدد ألوان البذلات:

البذلات التي يغلب عليها اللون الأحمر إنه أحمر (غير قابل للتقليد والذي كان عنفه قد أرعب روبنز)[٢٠] ويزور مطولاً ويشغف (بوفاريك) و(بليدا) مدينة الزهور والياسمين حيث يكون الأصدقاء الذين يصغي

لأحاديثهم وأحاجيهم (افترقنا عند العاشرة تقريباً... فأضاء حينها كل واحد قنديله وانتعل بابوجه ورفع قبعته وبرنصه وخرجنا جميعاً مع بعضنا) إنه يصطاد الحباري مع ضباط السباهي على ضفاف بحيرة (علولة) ويتعرض للريح الشرقية وللخماسين ويشهد الضيافة العربية ومهرجان الفرسان ويتسكع في الأسواق العربية (تمر الأعراق جميعها ويستبدل الشاويش المسلحين بالعصي وفرسان البيلق، بالنواطير والجاندرمة، وتستبدل الخيمة المتحركة للقائد، بمنزل العمدة البلدي، وتحل الأطعمة العربية محل الأطعمة الفرنسية وتسير أمامك قطعان من الجمال فتتولد لديك فكرة أولية عن السوق).

إن التشابهات المذكورة لتنوير القاريء تجعلك ترى فرومنتان وهو بالتضاد مع الكاتب الذي يبحث عن الغرائبية فهو يسجل الاختلافات:

(القائد ينفذ العدالة متلفعاً بغندورته، في ظل خيمة، ويخفق برقعه المصنوع من الحرير وراءه، بين رشقات البنادق وهلاهل النساء اللواتي يصفقن للمباراة حيث تستعرض فيها قوة وأناقة فرسان القبيلة)[٢١] (ينبغي النظر إلى هذا الشعب على مبعدة تناسب أن يظهر فيها ـ كتاب فرومنتان ـ الرجال عن قرب والنساء من بعيد أما المسجد، ومخدع النوم فلا يمكن النظر إليها أبداً) وإن تأمل فرومنتان جمال نساء الطوائف في المقصورات (وهن في فراء الحرير بلونه الغامق) أو الامتلاء (الصلب في الحايك المقلم بالأبيض) وسوى هذا فإنه يبقى كتوماً حول المرأة العربية[٢٢]. ولو لم يذكر غادته حواء فلن تجد للمرأة ذكر في كتابه.

لقد قابلها في الجزائر العاصمة وعاد ليلتقيها في بليدا، فتذعن لاستقباله، وتكشف عن وجهها أمامه وتستقبله ممدة على ديوانها والنرجيلة عند قدميها، كانت ترتدي بذلة حمراء وهاجة، فيعجب بالشحوب

الكامد لبشرتها وعينيها (المخضبتين بالكحل الأسود، وكفيها وقدميها المحمرتين بالحناء) فتنام أمامه وتقول له (يا روح ديالي) أينبغي التحدث هنا عن حب بريء؟ (لا أجرؤ على كتابة هذا الأمر) ومع ذلك فإن الرسام كان قد تأثر بعمق في اليوم الذي رأى فيه المرأة الشابة مقتولة أمام عينيه من قبل عاشق غيور.

هذه الحكاية تقف بالتعارض مع حكاية (بايا المارسيلية) وندرك جيداً أن الكاتب قد تأسف للوضع الصعب للمرأة في ذلك الوقت التي هي في المحصلة مثل حيوان المنزل تنهك قواها في حين يمضي الرجل وقته في تدخين الغليون الصغير وعمل لا شيء[٢٣].

وعلى الرغم من أن كل هذا الوصف كان دقيقاً ومرسوماً برصانة، إلا أنه لم يكن جديداً والمقابل فإن المجال الذي يحمله إلينا فرومنتان لم يكن مطروقاً، فيا لها من براعة، وذلك حين يصف الديكور فيعرف كيف يحرر بدقة، على المشهد، الخطوط، الألوان، الروائح، الأصوات، والضجيج إنها عند أبواب الجزائر العاصمة، المنازل البيضاء، وفي السرو الأخضر المسود، والزرقة الحية للسماء والريف الصاخب الذي يملؤه صرير التواعير والكراكي ويبرز أكثر عند التوغل في الجنوب الخط المنحني للساحل، وجبال المليانة، والأطلس، وبليدا وسط الجنوب تنتشر فيها تعارضات الظل مع الشمس والسهل الذي يحيط بها:

(إن كل هذا المشهد هو ليس بالجميل، ولا بالبشع، ولا بالمرح، ولا بالحزين، ولكن تختفي التفاصيل التي ليس لها قيمة في مجموع واسع جداً، وسابح، بإعجاز وبشكل مدهش تمازج الضياء بالهواء! حتى إنك لا تستطيع أن تتخيل عظمة غامضة أعظم من هذه، وبهذا الوفر من اللذة، فهو يعرف تسجيل تحولات الألوان، في كل وقت من النهار،

ومثال واحد فقط يدلنا، وهو الغسق، على بليدا المرسومة برصانة وبثقة كذلك!

(يسبح الغروب في وميض أبيض وتصبح البنايات دون اتساق، بينما تتوارى السماء شيئاً فشيئاً، وكأنها تمخرها، فلم نعد نرى إلا بغموض هذا الشعب الغريب، الذي يعود إلى الشوارع التي يقطنها فتصغي إلى حديث حولك، بلغة مبحوحة وغريبة قليلاً، فتميز صوت النساء من حديثهن الأكثر عذوبة، وصوت الأطفال من نغماته الصارخة، وتمر الفتيات الصغيرات حاملات على رؤوسهن صفيحة الخبز، منسلات بين الجمهور صارخات. (بالك... بالك) وبإمكانك أن تلامس دون تحديد الموقف: نساء محجبات يمكن التعرف عليهن من بياض ملابسهن، في حين أنه من الممكن أن تعيد تأليف مجتمع ميت بأكمله).

وتتعاقب الفصول: ومع أمطار الصيف تتغير درجات اللون: فالسماء تصبح (بلون الطين، ومن ثم تسود، والأشهر الطوال بانتظار أن تجلب ريح الجنوب) تبخر أسود الصحارى، ومعه بدقائق معدودات، الربيع[٢٤].

وكانت الصحارى أكثر من السواحل، تقدم إلى فرومنتان، مادة غنية لموهبته فعرف كيف يستغلها:

هذا إن كان يصف المشهد الرائع الذي يغدو تحت عينيه عند المساء، وعندما يجتاز جسر القنطرة والنخيل والسماء الواسعة الزرقاء، قرية مذهبة حيث تتصاعد مع النسمة الساخنة تراتيل المؤذن ـ والأبراج حيث يقدم له الرؤساء بأعين من لهب، الضيافة ـ والخيم الحمراء للدوار حيث يستقبل بعظمة أبوية ـ راقصات ولد نايل، والليل، المضيء ـ المعتم، مشع بنيران المخيم المعسعس ـ أو عندما يوجز بانوراما السهل (الشليف) (كان

بلون جلد الأسد، وسماؤه مغطاة بغيمات نحاسية اللون) أو امتدادات الجنوب ـ خمسة وعشرين فرسخاً من بلد مسطح (اللاشيء والخالي مثل نسيان من قبل الرب وخطوط هاربة وتموجات متحيرة) وسهوب (مثبطة للهمة) مغطاة بالمصطفى وبالحلفاء وبالافستين، مشهد بمهيمنات صفراء ورمادية تميل للبنفسجي أو الرمادي[٢٥] وهو يجد دائماً الكلمة الدقيقة أو الكلمة الصفة التي ترسم. وتتعاقب رسومه وموجزاته السريعة وخطاطاته ولكنها دقيقة واضحة وملموسة أكثر، تكشف وتعبر بصورة أكبر من وصف طويل: يرسم فرومنتان بصفحتين، العاصفة الشرقية والجمال[٢٦]، والرجال المصطفين، في قطيع متراص تحت سماء سوداء بلاتينية، فهو يعرف كيف ينوع من المؤثرات فتظهر (الأغواط) في عز الظهر وفي المغيب وفي منتصف الليل[٢٧] ولا ندري أي من الميزات التي يمكننا أن نطريها أكثر من الأخرى في هذه الصفحات المكثفة أهو اللون أم الدقة أم الزهد أم الجفاف المعبر أم الواقعية دون مغالات أم تنوع اللمحات وهو فن الرسم بالكلمات الأكثر بساطة والأكثر نعومة والمفعمة بالتباينات ـ ورود الصباح وفسفور الليالي وتقابل الظل والضياء في عز الظهر:

(إنه لشيء غامض وشفاف ورقراق ومتلون حتى كأنك تراه في مياه عميقة... كتب عن الظل في الساعة التي يسقط فيها من السماء دوش من النار) لقد كان يكمن في فرومنتان شاعر كبير:

(فبأي حنو يحلم بالصحراء) فهو أقل إمتاعاً من دوديه وأقل لمعاناً من غوتييه ولكنه أكثر مباشرة وأكثر إخلاصاً وأكثر موضوعية وأقل منه رجل الآداب الذي يبحث عن تأثيراته مما هو كفنان واثق من مهنته، إنه الرسام الحق للجزائر، لقد رسم لنا صوراً لا تضاهيها صور والتي بالإمكان في

يومنا هذا إن نتحقق من دقتها، وإن كانت روايات بروترون أكثر حركة وأكثر صحباً فإنها ليست أكثر حقيقية ولا أكثر تلويناً[28].

الهوامش:

١ ـ الكسندر دوما الأب، لوفيلوس الجزء الأول ص ١٥ ـ ١٧ (إنها الأرض التي منحتها العناية الإلهية إلى فرنسا قال بوجو فاخبر عنها كل أولئك المحامين الأشرار الذين يبتزون مائة ألف فرنك عندما نمنحهم عالماً) المصدر السابق الجزء ٢، ٢٤٣ ـ ٢٤٤

٢ ـ فرومنتان عام في الساحل ٦

٣ ـ انظر تيوفيل غوتييه، الأشعار الكاملة، شارل بونتيه فاسكل، ١٩١٩ ج ٢ ص ١٩٦، أسد الأطلس ص ١٩٨، البدوي والبحر ص ١٣١ ثم علينا أن نذكر (مزار سيدي ابراهيم للويز كوليه) ١٨٤٥ ومليانا لاوتران ١٨٥٧، في أطراف الصحراء ج ٢ ديكارر ١٨٨٨، وإشارات قصيرة جذابة وأبيات من هنا وهناك هي كذلك ممتعة وبيتورسكية فهذا هو الإلهام الذي وردنا بفضل الجزائر هكذا كتب م تايار ص ٨٤٦ وقد كان متسامحاً جداً.

٤ ـ على الثعلب أو فتح الجزائر ١٨٣٠ ويمكننا أن نقارن مع هذه الرواية، رواية الفتح للوي برترون ١٩٣٠ وهو على شاكلة أوزيب دو سال يحاول رمسنة الحملة ويستخلص من حكاية العمليات العسكرية حبكة حب صغيرة.

٥ ـ رسائل عن الجزائر، لوي برترون، ١٨٤٧، مدعم بيلوغرافيا غنية.

٦ ـ لوفيلوسن م لوقي ١٨٧١، ج ١، ٥٤، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٥٧ ـ ٢٧٨

٧ ـ المصدر السابق ج ١، ٢١٧، ٢٢١، ج ٢، ١٥٢، ١٦٥، ١٩١، ٢١٧ ـ ٢١٠، ٢٧٥، والخص هنا إحدى الطرف فالزوج إذا قتل عشيق زوجته فهو قاتل وإذا قتل زوجته وشريكها فهو عادل.

٨ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٢١ انظر مارميه ١٨٦، والصفحات اللاحقة.

٩ ـ المصدر السابق ج ٢، ٥، ٣، ٥٧، 74

١٠ ـ من أفريقيا بعيداً عن باريس شاريونتيه ١٨٨١، ١٢٨، ١٢٩، ٤١، ٤٧، ٥٨، ٥٩، ٤٦٠
١١ ـ المصدر السابق ٦٣، ٧٢، ٧٤، ١٠٦، ١١٧، ١٢٠
١٢ ـ المصدر السابق ٧٨ ـ ١٠٦، رقص المورسك انظر دوماً لوفيلوس.
١٣ ـ آخر القصص لومنيه .... ١٩٢٩ ص ٦٥ ـ ٨٣
١٤ ـ تحت الشمس ٧، ١، ١١٨، ٤٠
١٥ ـ المصدر السابق ١٩، ١٦٧، ١٥٦، ١٧٤
١٦ ـ انظر أزهار الضجر ٥٩، ٣٤ وبانتظار ما كتبه السكان الأصليون حيث هنالك اليوم أكثر من الأمس أدب جزائري مكتوب من قبل الجزائريين وهو أدب يستحق الدراسة.
١٧ ـ نجد الانطباعات المباشرة لفرومنتان في رسائل الشباب، بيلوغرافيا وملاحظات بلون ١٩٠٩، ١٦٥، ١٧٥، ٢٣٦، ومراسلات ومقطعات غير منشورة بلون ١٩١٢، ٦٩ ـ ٨٢
١٨ ـ يقول عنه شير أنه حقيقي وليس واقعي لقد بحث عن الحقيقة بعيداً عن الدقة والتشابه خارج الصورة الأصلية إنها الكلمات ذاتها التي يستخدمها فرومنتان في مقدمة كتاب صيف في الصحارى.
١٩ ـ عام في الساحل ٢٠، ٢٢،٢٤، ٢٦، ٨٦، ٩١، ٣٠، ٧٧، ٧٨
٢٠ ـ المصدر السابق ٣٨، ٤٣، ١٨٤، ١٩٢
٢١ ـ المصدر السابق ١٢٧ ـ ١٣٢، ١٤٧، ٢٣٦، ٢٦٦، ٢٧٦، ٢٧٧
٢٢ ـ صيف في الصحراء ٧٢، ٧٣، عام في الساحل ٣٠، ٣٥
٢٣ ـ عام في الساحل ٥٢، ٥٥، ١٣٦، ١٧٨، ٢٨٧
٢٤ ـ المصدر السابق ١٠، ١٢، ٦٦، ٦٨، ١١٥، ١١٦، ٢٤٢، ١٣٣، ١٠١، ١٠٩
٢٥ ـ صيف في الصحارى ٧ ـ ٨، ١٧ ـ ٢٠، ٢٧، ٣٠، ٤١، ٥٧، ٥٢
٢٦ ـ المصدر السابق ٨٥، ٨٨، ١١١، ١١٨، ١٢١
٢٧ ـ المصدر السابق ١٤٥ ـ ١٤٨
٢٨ ـ المصدر السابق ١٥٥ ـ ١٥٦، ١٨٣، ١٨٨، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥١

الفصل الثالث

الرحلة إلى مصر

في الوقت ذاته الذي كان يتم فيه اكتشاف الجزائر، كنا نكتشف مصر[١] وقد زار مارسلس القاهرة، وتسلق الأهرامات، وجال في أطلال ممفيس، وأعجب بالنوبيين الذين يسبحون عراة في النيل، وهم يشيحون بوجوههم خجلاً من الأعين التي تراقبهم، أمام (الفوضى المعربدة) للعالمات[٢] وكان دوماً يضخم من ذكريات الرسام دوزات فيصف سيناء دون أن يراها[٣]. كانت مصر حينها مجتاحة من قبل الإنجليز المثيرين للسخرية، والذين كانوا يفسدون الأسعار، وكانت مجتاحة من الباريسيين السياح الذين وصفهم مارميه في مؤلفه (الزهرية الالكتروسكية)[٤].

(دخل ثيودور بانفيل عائداً من مصر ـ ثيودور! لقد عاد سريعاً! وقد أمطر بالأسئلة:

ـ أجلبت معك بذلة تركية حقيقية؟ سأله تيمين. ـ أتملك جواداً عربياً وسائس خيل مصري؟

ـ أي نوع من الرجال هو الباشا؟ قال جول.

ـ متى سيصبح مستقلاً؟

ـ أرأيت رأساً تقطع بضربة سيف واحدة؟

ـ والعالمات؟ قال ركونتن.

ـ هل النساء جميلات في مصر؟

- والأهرامات؟ وشلالات النيل؟ وتمثال ممنون؟ وإبراهيم باشا؟. وإلخ... وإلخ... كانوا يتكلمون بصوت واحد...

فأجاب تيودور:

- ... إن الأهرامات!... أقل مما كنا نتوقعه!... أما الانتيكات فهي مملة من كثرتها فلا تسألني عنها... وإن نظرة واحدة للهيروغليفية، تجعلني أفقد وعيي، هنالك الكثير من الرحالة الذين يهتمون بهذه الأشياء... أما أنا فقد كنت مهتماً بدراسة هيئة الناس، والعادات لهذا القوم الغريب، الذي يتزاحم في شوارع الاسكندرية والقاهرة.

أتعلمون كان بإمكاني جداً أن أجلب معي النساء؟ فقد جلب إبراهيم باشا منهن الكثيرات من اليونان حتى أصبحن بسعر بخس... ولكن بسبب أمي.. لقد تحدثت إلى الباشا طويلاً... وهو رجل لبق... لا يحمل في رأسه أفكاراً مسبقة... أتعلمون؟ إنه بونابرتي متحمس لقد منحني مربيات فائقة الجودة.

- هل الباشا رومانتيكي؟ سأل تيمين.

- إنه لا يهتم إلا قليلاً بالأدب... لكنكم تعلمون أن الأدب العربي هو أدب رومانتيكي بأجمعه... لديهم شاعر اسمه ملك أية النفوس بن إسراف، نشر مؤخراً تأملات تبدو تأملات لامارتين إلى جانبها نوعاً بسيطاً من النثر الكلاسيكي... لقد شرعت بقراءة القرآن... فسأل تيمين كم من الوقت أمضيت هناك؟ - قال ستة أسابيع.... (وبدأ الرحالة يصف كل شيء بدقة من الأشياء الصغيرة إلى الأشياء الكبيرة). نجد في هذا الهجاء الساخر، صورة دقيقة عما كان يعتقده الفرنسيون عن مصر في العام ١٨٤٠ وكان على رحالتنا أن يعودوا بانطباعات أقل سخرية، فـ (ج. ج. أمبير) قد مكث في مصر من العام ١٨٤٤ - حتى العام ١٨٤٥ ومؤلفه

الرحلة إلى مصر والنوبة، هو مؤلف عالم مختص بالمصريات، وقد كتب م. ج. كاريه، أنه تحقيق عقلاني عن مصر الفرعونية، فالشاعر الذي كان في داخله متحمساً لبيتورسك الحياة الحالية، وفي مؤلفه ساعات من الشعر، يمكننا أن نقرأ بمتعة مقاطع ربما هي أفضل مما كتب، حول جزيرة الفيلاي، الجزيرة الغريبة الجليلة المنزوية وحول طبيعية النوبة والنيل:

(عزلة ملتهبة وعميقة،
ورمال ناعمة، لا متناهية كالبحار...
إنها سماء تفترس الغيوم،
وتغسل بلهب، عالماً ميتاً...
وثمة نساء، يهبطن ببطء نحو الضفة
بجبهة تحمل الجرة... وكتف يحمل الطفل)

إنها أبيات كان يمكن لها أن تكون موقعة من قبل تيفيل غوتييه:

حينما يتقدم المركب، مسحوباً بخطوات وئيدة،
تبدو النفس وهي طافية بعذوبة في الفراغ،
حيث يسهرون، وهم ينصتون لصمت السهول،
يصغون لصمت البجع، الذي يفيق نصف أفاقة
والكلب الذي ينبح، على عتبة الأكواخ البعيدة
والهمسات الموشوشة، للنهر العظيم النائم[٥].

وقد كتب كذلك مارميه الذي أعقبه بالرحلة إلى مصر، من العام ١٨٤٥ - ١٨٤٦ (من الراين إلى النيل)[٦] وقد كانت له خصائصه المعتادة بالدقة، بيد أنه ينقصه اللون، وغوتييه الذي يتحدث عن مصر دون

أن يكون رآها بعد، وهو يحمل عنها صوراً أصبحت كلاسيكية، فكتابه (ليلة كليوباترا) هو مؤلف رومانتيكي، أما قصة (الليلة الثانية بعد الألف) فهي حكاية عن الجنيات، وقد كان كتبها على وفق الفكرة الشائعة، التي كان يحملها الغرب عن الشرق، وقد كانت ربما تحمل ما يعد به عنوانها[٧].

لقد أحس غوتييه بشكل ممتاز القدرية الشرقية، بيد أنه أفرط في حكايته بالغيلان (التي تمضغ لحم الميت والجان، بأجنحته الرخوة) والنساء المحبوسات في كيس مع قطعتين والمرميات في الماء، ومن العبيد السود الخرس، المكلفين بالمهمات الخفية، و(الأزواج الغيورين، الذين يلوحون بالخناجر والسيوف الدمشقية) وكان يكتب على وفق الطراز الشرقي، الذي كان موضة في ذلك العصر، فحين تشحب فتاة شابة، فهو يكتب: (إنها احمرارات الفجر حيث تفسح المجال على خديها، لشحوب ضياء القمر)[٨].

وهو يحقق في روايته المومياء، ضربة تتطلب القوة فبعد أن يوثق عمله، بما يكتبه (إلى فيدو) يسترسل بالنقلات الفنية التي يحبها[٩] وهو طالما كان يحلم برسوم دقيقة، وبحدس إعجازي في كتابه الذي يتضمن سايكولوجية رومانتيكية كاملة. فقد خط رؤى باهرة عن مصر، وليس هنالك من وصف سهل لقبور تتفجر بضياء غاش للأبصار كوصفه، فلم يرسم بالكلمات أحد كما كان يقول تيوفيل غوتييه فحينما كان يرسم لنا (ناووسا) فليس هنالك من فعل فعله في كتابه (حنين المسلات) وهو يعرف الانفتاح الشاسع والعاري للصحراء:

إن مصر تكمن في عالم، حيث كل شيء فيه يتغير

ويسود الجمود

وبشكل أكثر تميزاً:

النيل الذي يبيض ماؤه.

بطبقة شفيفة من الرصاص،

إن رحلته التي قام بها إلى مصر في العام ١٨٦٩ لتدشين قناة السويس، لم تعلمه شيئاً على الإطلاق[١٠] لقد كان تأثير مصر على فلوبير حاسماً، فهو يحدد انتقاله من الرومانتيكية إلى الواقعية، ويتجول ابتداء من كتابه نوفمبر ١٨٤٩ حتى أيار ١٨٥١ برفقة ماكسيم دوكومب في الشرق المتوسط كله تقريباً، ثم يعود دوكومب من الرحلة بذكريات دون قيمة تذكر (ذكريات الرحلة)[١١] وهي رواية خبيثة وسيرورية وكتابه الذي نشر بعد وفاته (مذكرات منتحر) بمثابة رد ضعيف على كتاب اعترافات فتى العصر، وهذه بعض أبياته الطنانة:

أحب وأنا على الربوة، حيث تعج السحالي،

أن أرى الصالات ذات العمد، حيث سار،

رمسيس ومشى في الماضي...

وأخيراً بضعة قصص في ديوان تحت عنوان المغامرات الستة[١٢] حيث يصف فيه خيبة أمل سائح باريسي هو (غوت فروا دورانات) في مصر، وكان عليه أن يعود لأصدقائه بفرس عربية وبأمة حبشية، وتمثال من الغرانيت الوردي، وبملابس نوم تركية، فعاد بملاح قاربه الشراعي (ريس إبراهيم) الذي يصف محدثه، الاندهاش والحزن في باريس، وكان يعرضه كما لو كان أمراً مثيراً للفضول:

(أسرع... يقول خادمه ينبغي تهيئة الغليون الكبير... ها هم الجمهور... سيظهر سيدي بمظهر تركي).

ويروي دوكومب حكاية الزنجي ارباحي، الذي خطفت منه خطيبته (طاويلا) فتبعها ليعثر عليها في القاهرة بعد مغامرات عديدة، ثم يستخدم في منزل سيدها كسائس للخيول، غير أن المفاجأة هي أنه كان يعامل معاملة الجنود الأحباش الأسرى. ونفهم منه أنه كان قد خلق منه مخصياً، وهذه حجة أخرى لوصف حياة الحريم.

أما فلوبير فهو يغمر غينيه بصور مستخدمة في ما بعد في كتابيه (سالامبو) و(هيروديا) أو النسخة الثالثة من (إغواء القديس اوغسطين).

(كنت أملأ بالألوان بطني كما يملأ الحمار بطنه بالشوفان) كتب فلوبير إلى أمه أنه يسجل ملاحظات نشرت في العام ١٩١٠، وهي ملاحظات الرسام الذي يصنع الباليته من ملاحظات مقطعة ومختزلة ونيئة، لكنها بألوان مركزة فيلتقط منها مشاهداً من ثلاثة أسطر هذه هي، في سبيل المثال:

(لوحة): ـ (بعير يتقدم بوجهه باتجاهنا، يتهادى، الرجل من الخلف إلى جانبه، ونخلتان في الجهة ذاتها، أما في البعد الثالث، فإننا نرى الصحراء التي ترتفع)، إيجاز، نزهات، مشاهد، سلوك، مخططات سريعة:

(غربت الشمس فوق مدينة أبو، الجبال بلون الانديغو الغامق... الأزرق فوق رمادي أسود، مع تباينات طولية خمرية اللون، وفي شقوق الوديان نخيل أسود مثل الحبر، وسماء حمراء، بينما للنيل هيئة بحيرة من الفولاذ المنصهر)(١٣).

وتضجره المعابد بعمق، بيد أنه يحمل الذكرى المضطربة للمحضية كشك هانم، والتي اضطر للحديث عنها للرسام لويس بويه، حتى أن هذا الأخير قد حلم بها بدوره، وخلدها في مقاطع كاملة(١٤) تحت عنوان كشك هانم ذكريات مهداة إلى فلوبير:

عريض هو النيل ومسطح متل مرآة من الفولاذ،
تماسيح رمادية تغوص عند ضفة الجزر،
نخلة عظيمة في أزرق السماء، تنشر بمظلة أوراقها الساكنة،
كواسر بيضاء تتأرجح في الهواء،
ورمل يدخن، في أوج الظهير في الفضاءات
وجواميس مربوعة، تنام عند الأدغال الخضراء،
يتعرى جلدها، من لسع الذباب الشره،

ولن ننتهي من ذكر أسماء الكتاب العظام الذين وفدوا مصر: ـ غوبينو، رينان، ل. اولومب، واودار، ش. ديديه، وأي. أبو في كتاب سهل وحقيقي هو الفلاح. وهي رواية ذات أطروحة دفع ثمنها على الأرحح الخديوي، وكان يدين بها تراكم المعطيات السياسية، والاقتصادية، والزراعة، وتدين التجاوزات الحضارية، وتشير إلى التقدم الذي حققته مصر. ويخط لنا صورة حية للمصري المتورب في كتابه التعليمي (تحقيق وبانوراما)، وهو كتاب ممتع لكنه لا يبلغ أبداً الحماس اللامع لليونان المعاصرة.

إلا أننا يمكننا أن نلتقط فيه أكثر من ملمح بيتروسكي، وإدانة أنيقة للنظام الاجتماعي ونقد لاذع لرجال الأعمال الشرقيين، والموظفين المصريين، في مخططات مليئة بالحركة حول الأدب المسلم، وبضعة صفحات تدعو إلى التأمل حول قناة السويس والصعوبات التي واجهها دولسيبس وسوء الفهم الذي سيصدم به:

(أي برزخ ذاك هو حانوت السيد دوليسبس، إنه ليس ببرزخ، إنه فخ للإيقاع بأموال المغفلين.. تصرخ إحدى شخصيات الرواية ـ ويخلص أبو

بحق ـ إنه أعظم إحسان من مصر وأعظم مجد لفرنسا، وأعظم فائدة لإنجلترا).

ويروي فرومنتان الذي كان يشاهد مع غوتييه افتتاح القناة الملاحظات التي نشرت في العام ١٨٨٥ ثم في العام ١٩٣٥[١٥] ولها الألوان ذاتها لذكرياته عن الجزائر بالرصانة ذاتها، لكنها أكثر إيجازاً رغم صفائها بالقياس إلى ملاحظات فلوبير لقد كان موسوساً بفكرة كتابة مؤلف عن النيل:

(مصر... مصر... إني معذب بكتابة بضعة صفحات عن هذا البلد) تصوروا هذا ما كان يوح به إلى الأخوة غونكور:

(أرض موحلة... شيء شبيه باللدائن، حيث لا يسمع للخطوة صوت، سماء زرقاء ناعمة، إنكم لا تعرفون سوى الشرق الواضح والمتعرج... هنالك على جميع المستويات تتحول أشرعة البخار غير المحسوسة، لتتحول أكثر كثافة كلما تبتعد، هنالك رجال طيبون سود زرق، وإنه لمن النادر أن تلتقي بنقطة حمراء، فيا له من لون جميل هذا ما يفعله هنالك الأزرق القطني) وإني أنظر إلى كل هؤلاء الطيبين وبضياء أبيض صغير في الجبهة والترقوة آه... ينبغي قوة مزهوة من الإشراق كي تعبر عن هذا الأمر، في هذه الأماكن من الأرض الحيادية قليلاً، وهذه الخضرة الخارجة من الغرين الحمري، الذي يملك إخضراراً لا تجده في أي مكان آخر، والنيل نجده بعد ريح الشمال، معذباً، ومتموجاً، مائجاً، وهائجاً. وقذراً لكنه يتحول بعد ريح الجنوب إلى المعدن المنصهر[١٦].

إن هذا الكتاب الذي لم يكتبه فرومنتان، نأسف له أشد الأسف، فقد كتب أن مصر في رماد مكفهر، وهي امتداد للساحل وللصحارى. وكان يمكننا أن نعطي كل شيء ثمناً لهذا الجمال.

إن الكتاب الأكثر كمالاً، والأكثر حيوية، حول الشرق هو كتاب جيرار دو نرفال[١٧] وقد كان صديقاً للرسام ماريهارت، الذي رسم عند عودته من مصر على جدران منزل تيوفيل غوتييه، طريقاً مسدوداً (لدوينة) وجنبه ثلاث نخلات ومسجد.

وطالما حلم نرفال بالشرق فقد رحل إلى مصر وسوريا وتركيا في الأول من كانون الثاني ١٨٤٣ فنقل عنها كتاباً شيقاً وجذاباً، ولم يكن كتاب ذكريات، إنما حكاية مرمنسة كان قد أعدها بالرجوع إلى ملاحظات وذكريات الرحالة، ونجد فيها (كما يقول ج. م. كاريه) من الشعر أكثر مما فيها من الحقيقة، وتبقى الأشياء مرتبة فيه وإن الرؤيا الشاملة لم تكن كافية وكان الانطباع العام فيه دون وضوح، ولكن التفاصيل كانت قد نقلت بإخلاص ملون وجذاب.

فنرفال (حاج الإسلام) كان موجزاً في ما يتعلق بمصر القديمة، ولم يكن مهتماً بالمشاهد والصروح، بيد أن قلمه لم ينضب في ما يتعلق بوصف السلوك ومن دون شك، فإنه لم يكن يمر صامتاً حول ما يتعلق بالأهرامات أو الأطلال، إنما كان يرسمها رسماً سريعاً.

(إنك تتأمل إعجاباً وترتعب.. كتب... ويضيف! إن كل هذا هو معروف لدرجة أنك لا يمكنك أن تعير أهمية كبيرة للوصف).

ولكنه حين يصف النيل، فإن المركب الشراعي سيكون مقطعاً بالأحداث التي تتسم بصيغتها المحلية، أو لم يتوقف لكي يحضر عملية ختان حيث غنى الجميع أمامه نشيداً لـ (بونابرته) أو ليس هو الذي كان يصغي ليلاً إلى الغناء الحزين للمجدفين وهم يصعدون النهر لينشروا بعيداً تموجاته المرتعشة؟[١٨].

وتلهمه القاهرة صفحات جميلة، سواء كان لدى الضاحية الفرنسية،

المكتظة بالمالطيين والإيطاليين والمارسيليين أو في الموسكي (حيث ترى البكوات والباشوات في الخمارة الإنجليزية أو في صيدلية القصطبول يترقبون الأخبار) ومن ساحة الأزبكية ترى بانوراما المدينة الموشحة بباقات المنائر الممزوجة بالقبب، كانت هكذا القاهرة عندما يكتشفها من أعلى القلعة. وحينما يصف شروق الشمس، فإنه يستخدم جملاً ذات موسيقى رائعة:

(إنه صوت التركي(*) الذي ينشد من المنارة المجاورة، ممتزجاً مع صوت الجلاجل والخبب الثقيل للبغل الذي يمر، والنسيج الصباحي العبق بالرائحة الشذية، حيث تتفجر الشمس فجأة في طرف السماء)[١٩].

لقد عاش قبل بيير لوتي حياة الإسلام، جالساً في مقهى وهو يصغي أسابيعاً للرواة العرب وهم يسبحون ببطء حكاياتهم، فيشهد رقص العوالم تحت غيمة من الغبار ودخان التبغ، أو وصول القافلة القادمة من مكة وحجاجها الثلاثون ألفاً، تحت رعد من ضربات الطبول والصناجات والطنبور:

(أمة من المؤمنين في مسيرتها... والجمال وحيدة السنام المزينة بالريش تسير وئيدة وهي تبارك الجمهور، وكانت الخيم المبرقشة منصوبة، ومغاربة ملثمون وصلبون، أمراء وشيوخ يقطرون فضة وأحجاراً كريمة، ونساء محمولات على الهوادج والمحفات[٢٠] (وهنالك ما هو أغرب من ذلك إن نحن صدقناه، فإنه غادر فندق (دوميرغ) وجمهوره الأجانب لكي يستأجر منزلاً محلياً في المدينة، ثم أثثه بالأرائك والنرجيلة، فيقلق جيرانه لرؤيته يقطن فيه وحيداً عازباً، فيبعثون إليه شيخ الحارة الذي يدعوه للاختيار بين المغادرة أو اتخاذ زوجة له.

(*) يستخدمون كلمة تركي ويعنون بها المسلم ويقصد هنا آذان الفجر.

(إن أفندينا مثلك... قال له شيخ الحارة... فينبغي أن لا يعيش وحيداً، إنه لمن الشرف إطعام امرأة وتقديم الخير لها، ويكون من الأفضل إطعام العديد منهن عندما تسمح لك الديانة التي تعتنقها بذلك).

ويعلم نرفال أن هنالك أربعة أنواع من الزيجات في مصر، وهذه الزيجات تتسم بتطور متماسك، ولكن ينبغي عليك، وبأي ثمن، من الأثمان، أن تتزوج أمام قنصل بلدك، وإلا كان الزواج في هذه الحالة غير قابل للانفصال، فيقرر بعد أن يستعرض (الجنس القبطي الجميل) وبعد سلسلة من اللقاءات التي يرويها بسذاجة متظاهرة يقدم على خدعة لذيذة: (كانت الأولى رشيقة مثل نخلة وكانت عيناها سوداوين مثل الغزال، وبشرتها تميل قليلا إلى السمرة الداكنة، وبينما كانت الأخرى أكثر رقة، وملامحها أكثر امتلاء وكان لها هيئة وملبس ملكة شابة حبيسة في مملكة الصباح).

فأعجبته الأخيرة (لم تتزوج حتى الآن سوى مرة واحدة ـ قال له الوسيط ـ مع ذلك ليس لها سوى ستة وعشرين عاماً. ـ كيف، هل هي أرملة؟ ـ كلا، بل مطلقة!) واستمتع نرفال بكل هذا الأمر وأطال مساعيه، فغضب جيرانه:

(أقاموا وبالقوة عريشة على سطح داره، لكي يمنعونه من رؤية نسائهم، ويجبرونه على أن يتخذ قراراً، وبدل من أن يتزوج نرفال، اشترى لنفسه أمة[٢١] كانت هذه الأمة من يافا واسمها زينب، كانت جبهتها وصدرها موشومان بينما كان جسمها منحوت بدقة، وشعرها مدهون بقطر بالزبد، وهي من اللواتي تمكن من مشاهدتهن في سوق العبيد، وقد فكر فيها أن تكون رفيقة له وحسب، ومن ثم تدبر له شؤون المنزل[٢٢] ولكن يا لنرفال المسكين! فمغامرته العاطفية كانت أكثر ابتذالاً من مغامرة.بيير لوتي،

وكان من الصعب الاحتفاظ بزينب، فهي صعبة على الفهم، وكم هنالك من التعقيدات في عملية إطعامها وإلباسها ومراقبتها لأن الكاتب لا يجرؤ على تركها وحيدة مع طباخه[٢٣] إن هذه الصفقة لم تزعج رحالة الحب الغرائبي، فقد كان على شاكلة مزاحميه قد لدغ باللغز الدي يغلف حياة المسلمين فيصغي إلى نظريات ندمائه:

(إن رفقة النساء تجعل الرجل شرهاً وأنانياً وفضاً، وتهدم الأخوة والإحسان بيننا، وتسبب الخصومات والظلم والاستبداد، فليعش كل منا مع نظرائه، فيكفي أن يجد السيد في ساعات القيلولة أو عندما يعود في المساء إلى منزله، أحداً لاستقباله بوجه باسم، وإشكال محبوبة مزينة بالثراء... وإن كانت العالمات اللواتي يجلبهن للرقص والغناء أمامك، عندها يكون بإمكان الرجل أن يحلم بالفردوس مسبقاً).

ويستعلم نرفال من باب الفضول عن وضع النساء: فالحريم هو (نوع من الأديرة حيث يهيمن فيه النظام الصارم) فالرجل يأتي في زيارة للمراسيم، ويعلن عن نفسه ولا يدخل إن كانت نساؤه يستقبلن الصديقات، ومن ثم هن يخرجن بحرية للذهاب إلى البازار، أو للحمام، أو للمقبرة، وإن الحريم أقل عدداً من النساء فيما نعتقد:

(إن عدد النساء هو نوع من الترف مثل عدد الجياد، وإنه من الواجب أن لا يكون لديك منهن أكثر من اللازم، وذلك بسبب المصاريف التي تلزمهن، وبسبب مكائدهن (هذا هو إذن وهم ينبغي إزالته هو الآخر: لذائذ الحريم، يا للمساكين المسلمين فكم نحن نغتابهم... إن الأمر يتلخص ببساطة أن يكون لديك هنا وهناك عشيقات، وإن كل رجل ثري في أوروبا لديه التسهيلات ذاتها، فالأثرياء في أوروبا يملكون القصور الجميلة دون أن يحبوا الفن،

والحدائق الجميلة دون أن يحبوا الطبيعة، والنساء الجميلات دون أن يعرفوا معنى الحب)[٢٤].

ألا ينورنا هذا التهكم بالرؤية الصائبة لحالة اجتماعية كنا نقيم حولها أفكاراً خاطئة ومنذ أكثر من قرن؟

إنه يتبع في البازار امرأتين محجبتين يتسمن له فيلج وراءهن منزلاً حيث يتقدم نحوه رجل مهيب (سيدي العزيز تفضل بالدخول، سيكون التحدث في الداخل أكثر راحة) لقد كان هذا الرجل جندياً قديماً في جيش بونابرت، وقد تبنت زوجته وابنتاه الملابس الإسلامية.

* * *

لقد قدم رحالة آخرون إلى مصر، ويمكننا أن نقرأ في مؤلف حديث يحمل عنوان (سيد برشون على ضفاف النيل) عن عدد من الرحالة الفرنسيين المتواضعين إلى القاهرة[٢٥] وقد استلهمت المؤلفة عدداً من المؤلفات المهمة بأكملها أو جزء منها عن بلد الفراعنة، فبطل دوديه (نيباب) هو نموذج رجل الأعمال الذي بنى ثروته في الشرق.

واي. أم. غوغه يستخدم مصر كإطار لختام روايته سيد البحر ويكرس لها شفريون مجلداً من الانطباعات تحت اسم الأراضي الميتة، ويظهر لويس برترون (وادي النيل) وقد اجتاحه الأوروبيون (لقد ذهبنا للروائع الأكثر قدماً، فوقعنا في يوم أحد أو في يوم سانت مونديه)[٢٦] وهي الثيمة التي طورها لوتي في رسالة الهجاء في (موت الفيلاي) حيث يرمي المبروورون من السحر اللعنة على الحضارة والإنجليز بصورة خاصة وهم (الكوكس) (والكوكسيس) الذين يقتحمون بمظلات من القطن الأبيض فندق (كوتراك) في أسوان أثناء الفصل، ويزدحم النيل بالثكنات العائمة لوكالة الكوك، وينهل قواه

(ليغذي بليمونة يستحدمها كمادة أساسية القطنيات الإنجليزية).

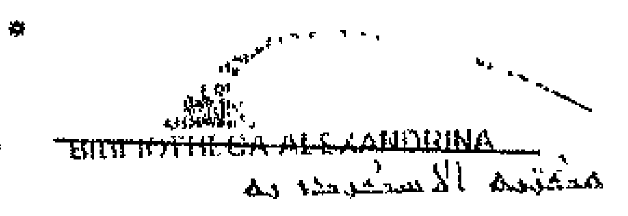
لقد استبدل كل شيء، وبدلاً من أن ترى المقاهي العربية الجذابة، فأنت ترى المشارب والخمارات حيث تباع منتجات هؤلاء (الخيرين العظماء الفرنسيين) والذين لا يقدم إليهم جيلنا القدر الكافي من الإحسان[٢٧] ويقدم بيرو وديكومب وكوزينة ولا تواسية الابتسامة الأبدية لأبي الهول... إذ لم تكن الحكاية الساخرة المونامرتية، لرولاند دورجيلز أكثر لذوعة من النقد الساحر والمرير والبارد والقاسي لبيير لوتي الذي قال (لقد أغرقنا الفيلاي ولكن أيسمح هذا بأن يجعل مزارع القطن منتجة) ومع ذلك قال لويس برترون (على الرغم من كل شيء إنه الشرق ولكنه ليس الشرق الدي كنا حلمناه) لقد سبق وأن تفجر هذا الوهم في خلاصة كتبها جيرار دو نرفال:

(آه يا صديق، كان يقول إلى تيرفيل غوتييه، كم رأينا نحن الاثنان خرافة الرجل الذي يجري وراء الثروة وهو على سريره... فأنت ما زلت تعتقد بطائر أبي منجل، وزهرة اللوتس الحمراء القانية، والنيل الأصفر، وتؤمن بنخلة الزمرد والصبار الهندي والجمل وحيد السنام... ولكن للأسف فطائر أبي منجل هو طير بري، هيئة منفضة الريش الهزيلة، والصبار الهندي ليس سوى صبار بري، ولا يوجد بعير إلا وهو في هيئة وحيد السنام، والعالمات هن أشبه بالذكور، أما ما يخص النساء الحقيقيات فيبدو أنك سعيد.

حينما لا تلتقي بهن.. ثم يلخص الأمر... سأعثر في الأوبرا على القاهرة الحقيقية....)[٢٨].

لقد كان يسجل الفرق بين غرائبية الشعراء وغرائبية الرحالة.

* * *



وعلى الرغم من إدانتنا لأحلامنا هذه، إلا أننا نحتفظ لمصر في أذهاننا بصورة باهرة، بيد أننا لا نطلبها لا من غوتييه، ولا من نرفال، ولا من بيير لوتي، إنما ندين بها إلى البرناسيين أسلاف لويس بويه، وإلى هيروديا الذي يؤلف في (رؤية الحلم) كل مصر، مصر التكربول.

الهوامش:

١ ـ كانت مصر تمثل حتى العام ١٨٩٦ نسبة للرحالة الفرنسيين الأحل المنطقي المؤدي إلى الشام، فالطريق من باريس إلى أورشليم كان يمر عبر الأهرامات ج. م. كاريه ج ١، ٢٥٣

٢ ـ ذكريات الشرق ج ٢، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٥٣

٣ ـ خمس وعشرون يوماً في سيناء، جوسلان ١٨٣٩

٤ ـ الزهرية الاتروسكية بالموزائيك، لافيون، ١٩٣٣، ١٥٧، ١٦٠، انظر نرفال ج ١ ص ٩٢ حيث يصف الإنجليز بقبعاتهم المستديرة المزينة بوشاح أخضر الصفحات ٢٦٥ ، ٢٦٩

٥ ـ أدب ورحلات وشعر ١٨٥٠، ١٨، ١٦٦، ١٦٧، ج. م. كاريه ج ٢ ، ٥٢ ـ ٦٣

٦ ـ من الراين إلى النيل ج ٢، ٣٨٥ وانظر ج. م. كاريه المصدر السابق ج ٢، ٦٥ وقد خصص مارميه أربع مقالات عن النيل والسودان ومصر في الرحلات الجديدة بباريس ١٨٥١، ج ٣ وعن الحبشةا لمصدر السابق ج ١، ٤١٥

٧ ـ جمعت حكايات كليو باترا (١٨٣٨) في مجموعة قصص ١٨٤٥ وجمعت الليلة الثانية بعد الألف ١٨٢٢ مع روايات وحكايات أخرى.

٨ ـ روايات وحكايات ١٨٣٣، ٣٣٣ ـ ٣٣٤، ٣٤٣، ٣٤٧

٩ ـ إن مفهومه عن الإسلام هو أقل أصالة من فكرته عن مصر الفرعونية (ج. م. كاريه ج ٢، ١٨٨)

١٠ ـ لقد كسرت دراعه أثناء الرحلة مما أزعجه كثيراً دلك.
١١ ـ انظر أي. ميبال، فلوبير المستشرق، الكتاب الذي ظهر بعد وفاة دوكومب في مجلة الأدب المقارن ١٩٣٢ ص ٧٨ ج. م. كاريه ذكر سابقاً ح ١، ١٧
١٢ ـ المغامرات الستة باريس العام ١٨٥٨، ١٦ هذا الجزء من رؤية ح. م. كاريه بإمكاننا أن نستشير ذكريات أدبية ج ١، ٤٢٣ وما يليه.
١٣ ـ ملاحظات الرحلة باريس، كونار ١٩١٠ ج ١، ٩٦، ١٠٣
١٤ ـ ملاحظات الرحلة ج ١، ١٧٤، ١٥٥ انظر لوي بويه أكاليل أصابع العروس لومير ١٨٩١، ٢٨. انظر كذلك المصدر السابق ص ٤٤، ٤٨ قصائد عن مصر.
١٥ ـ رحلة إلى مصر (١٨٩٦) نشرت من قبل ح. م. كاريه باريس أوبيه ١٩٣٥
١٦ ـ مذكرات غونكور، فاسكل فلاماريون ١٩٣٥ ج ٥، ١٤٧،
١٧ ـ انظر كاريه، ذكر سابقاً، ج ٢، ص ١ ومايليها.
١٨ ـ نرفال ج ١، ١٧٤، ١٧٦، ١٩٧، ٢١٠
١٩ ـ المصدر السابق ج ١، ٧٧، ٨٠، ٨١
٢٠ ـ المصدر السابق ج ١، ٨٧، ٨٩، ١١٤، ١١٩، ١٢٦
٢١ ـ نرفال ج ١، ٤٨، ٥٢، ٧١، ٧٣، ٧٦، ٩٠، ٩١
٢٢ ـ المصدر السابق ج ١، ١٣٨، ١٤١، ١٤٧،
٢٣ ـ المصدر السابق ١٢٧، ٣٣، ٩٣
٢٤ ـ نرفال ج ١، ٥٥، ٥٦، ١٦١، ١٨٥، ١٥٩، ١٦٣
٢٥ ـ ماركريت ليشتبرجه، كتاب فرنسيون في مصر المعاصرة باريس ١٩٣٤ ص ٤٣ ومايليها.
٢٦ ـ كتاب البحر المتوسط ج ٢، ١٩ ـ ١٤٨
٢٧ ـ موت القيلاي ١٦٣، ١٨٧، ٢٢٠، ٣٣٠، ٣٣٤
٢٨ ـ نرفال ج ٢، ٣٢٧ ـ ٣٢٩

الفصل الرابع

الأدب والمستعمرات

تحتل الجزائر مكانة هامة في عملية تحديث الأكزوتية، فكم هو ضخم عدد الفرنسيين الذين مروا بها منذ فرومنتان، ومنذ جول لوران الذي صور حالها في مؤلفه (ساعات في أفريقيا ١٨٩٩)، وأندريه جيد الذي ذهب هناك ليبحث عن قوت الأرض.

كم هو كبير عدد الرواة والمسافرين الرفيعي المستوى، والمتدني المستوى الذين حاولوا وصفها؟. لقد كانت الخلفية التي تستحق الاستكشاف غنية وشاسعة، ويظل النتاج لا يمثل شيئاً وذاك ما لاحظه أم. تايار بحق، حيث أن المهمة كانت صعبة في تحليل فكر وسلوك السكان المحليين، ولم تكن الثيمات المعروضة قليلة، ومع ذلك فإن نقلها إلى الأدب، لم يكن على الأغلب سوى نقل اصطلاحي.

إن الثيمة الأولى المستخدمة، في الجزائر، كما هو الحال في جميع المستعمرات، هي على الأرجح الثيمة الرومانتيكية لقصص الحب التي تتحدث عن علاقة بين فرنسي وبين إحدى فتيات المستعمرات، وتبقى الروايات حتى العام ١٨٨٠ التي تتناول الجزائر، هي روايات ذات مستوى ضعيف وسطحي، وروايات مشتبه بها (في الفترة التي تمتد بين ١٨٣٠ و١٨٨٠ ـ كتب أحد النقاد المتبصرين ـ لم يكن الغرض من الروايات ذات الموضوعات الجزائرية الكشف عن جزائر حقيقية، ما خلا حالتين أو ثلاث، إنما تتبع مغامرة غرائبية في جنس أدبي كان على الموضة)[1] ولم تظهر الأعمال والمؤلفات الأمينة، التي كانت تتميز بالملاحظة مع الواقع والتي

يرافقها في الغالب شيء من المهارة الأدبية والموهبة إلا في غروب القرن التاسع عشر: إنه السلوك إنها العادات التي أخذت تزحف شيئاً فشيئاً، وتسجل أيل ابرهارت في دفاتر سفرها[٢]، ملاحظات رصينة مباشرة وأمينة، وجمل متقطعة وقصيرة، عن أشياء شاهدتها ولاحظتها عن أوجه الحياة في جنوب الجزائر، وتعلن عن غبطتها لاكتشافها في الإسلام الأسباب الحقيقية في بقائه. وترسم متتبعة ـ مع خضوعها بعض الأحيان إلى نوع من الابتذال والألوان الباهتة ـ سلوك المرأة اليهودية في الجزائر[٣]، وتبين مغالي بوازنار في الرواية (المحدث) كيف أن تمثيل العرب بالديانة المسيحية، هو أمر مستحيل، بينما يدرس فردناند دوشين في روايته (عند الخطوة البطيئة للقوافل) الوضع البائس للمرأة العربية، بوصفها بضاعة تباع وتقتنى، كما تقتنى الدابة، ورغم طرافة تحليلاته بيد أنها تظل مع ذلك سطحية، ويدرس آخرون مقتربين من الفونس دوديه مسألة الكولينالية والإدارة وذلك بهجائهم لها:

(انتبه للثورة) هو الدرس الذي نستخلصه من روايات أرواندو (سكان المستعمرات) ١٩٠١ و(كاسار البربري ١٩١٩) أو من كتاب الأخوة ثاروا (العيد العربي ١٩١٢) وقد أوحت الجزائر إلى لويس برترند أفضل ما في أعماله، لقد بحث في أفريقيا عن الماضي الحي الذي يرقد في قسنطينة:

(كنت أتكيء على طرف السور حيث يجلس الأمير المنفي، في حين كانت الشمس تهبط خلف جبال الكرستال والذهب، وبدأت أحلم بصوفو نيزب فتاة البحر) كان يحلم في قرطاجة ـ نكربول الأموات العظيمة التي بشعتها الأخطاء النقية ـ بالقديس سيبرابيت والقديس اوغسطين، وأوحت له أفريقيا المسيحية، رواية (دماء الشهداء):

(أتينا لنجمع إرثاً كتب في لاسينا)[٤]، وكم كان حساساً لمشهد

الجزائر الحية! وليس أدل على هذا سوى ذكرياته (على طرق الجنوب) الذي نشره مؤخراً(٥)، فقد ذهب للجزائر وهو مدرس شاب، متأهباً للغوص وبسعادة في ما كان يعتقده بـ(البربرية) وكان رأسه مليئاً بصور مسكرة:

(خان القوافل، هذه المفردة التي تلتهب ذاكرتي حالما اسمعها! وترتسم في اللحظة أمام عيني رؤى الحريم والمحظيات وقصور ألف ليلة وليلة)، فكم كانت خيبته عظيمة لدى وصوله، وكم كانت عظيمة غبطته عند اكتشافه الجزائر الحقيقية، وخلال العطل الصيفية، كان يتوغل ـ ناسياً مدرسته وتلاميذه ـ في الجنوب حيث يتوهج السهل المتوحش، مقتفياً أثر العجلات التي تسير عائدة بينما هو يسلك طريقاً آخر، راجلاً مرتدياً بدلات كبدلاتهم ـ بنطلوناً فضفاضاً من الكتان الأزرق، وتابولا من الصوف الأحمر ـ ويسير معهم، مرتكزاً على (حاملة التايلة) في عرباتهم، فيكتشف جنساً مقبلاً على التكون:

(كم تختلف هذه الكائنات بلحمها ودمها وعنفها وانفعالها عن البرجوازيين الصغار، أو الباريسيين، عن أناتول فرانس).

وبفضل أصدقائه الجدد يكتشف الجزائر الحقيقية، ـ ليقدمها للباريسيين غير القادرين على رؤيتها!

للأكاديميين من أمثال: ياتسين جيرنموا الذي غادر الجزائر وهو يقول:

(نعم إن كل هذه الأشياء أضحت معروفة... النساء... الرجال... المقاهي... والكثير من الأحمر والأزرق... هل هذه تنويعات حول الصحراء السابحة، كلا صدقوني، إني لا أجدها ممتعة بلادكم هذه.. أولا إنها غير حقيقية، وجزائركم تبعث فيّ الاشمئزاز، فالفنادق غالية جداً، أسعارها إنجليزية... وغذاؤها قبائلي وسياستكم! فأنا لا أدس أنفي فيها، أما

عن دراسة السلوك فقد أصبحت مستهلكة وغاية في الابتذال وإني لم أر شيئاً حتى الآن يدهشني ولو قليلاً أو حتى يثير اهتمامي فقد قدم لي المغاربة والشيوخ المحليون واشبعوني ضيافة وفنطازيا على نفقة الأميرة وهذا أمر طبيعي، مع ذلك بقيت بارداً كما هو حالي أمام الأشياء المعروفة للغاية).

أو على غرار الصحفي سان جيم المرسوم وفق جان لوران (ولكن رحلاتكم هذه ليس لها وجود، فليس لديكم أشجار وهنا تكمن المشكلة هنا! أما أماكنكم الخضراء فهي من الزنك وصفائح التغليف) أما لويس برتراند فهو يفهم إعجاب ديديه:

(من المؤكد - كتب - يوجد في هذه الساعة شعب جديد في الجزائر، لايشك أحد بوجوده في فرنسا)[٦] وقد وصف هذا الشعب حيث يكون الإداريون الجهلة في الأعلى، ومعهم رجل دين مناضل، مركب من الطباع القوية (بوينغ أرشيدوق الجزائر العاصمة، ومن البرجوازيين المتحمسين للمتعة وللسياسة، كما هنالك ملاك كبار غائبون على الدوام ومشاة مع الصغار، ومستعمرون حقيقيون يناضلون لاجتياح الأرض والاحتفاظ بها وبالرغم من همومهم وتعبهم إلا أنهم يعيشون سعيدين بجهودهم، وفي الأسفل، هنالك أوباش مختلطون مكونون من جميع أجناس البحر المتوسط يسعون في اللحظة هذه إلى تعريف أنفسهم وإثبات هويتهم كشعب متجانس، إلا أنهم أوباش متحمسون للحياة وللتمتع بأهواء جامحة، سهلة الانقياد إن عرفت كيف تقودهم، فهم يطيعون أسيادهم بشغف، (وكارملو) كان قادراً على استثارتهم وإغضابهم ضد اليهود وضد السكان المحليين. بيد أن برترند لا يقول شيئاً عن المسألة العربية، وكل فضوله يتركز على هذا الشعب المتوسطي المهاجر السائر إلى التكون.

(أنت إسباني؟ يتسائل أحد أبطال روايته، كلا أنا جزائري)[٧].

لقد كان هذا الشعب يتكون مس الالزاسيين والإيطاليين والديروفونساليين، ومنطقة اللانغ دونغ، إنهم هؤلاء المهاجرون الذين يسلط النور عليهم في (دم الأحباش)، وما الضير فهو حين يصف مأدبة في نزل كان يختلط الأجناس فيها، يتذكر مأدبة المرتزقة في سالامبو، فهو قد شاهد ووصف جيداً ظاهرة حقيقية، وكذلك ما ينبغي التحدث عنه في (الفيتا) هو ولوحة العادات التي تشكل أكثر من حبكة روائية أو تحليل سايكولوجي، وما ينبغي أن نبحث عنه هي لوحة العادات في مؤلفات مثل (لاسنا) و(دم الأجناس) و(بيبت الحبيبة) ووصف ممتع للمحيط الشعبي الجزائري الذي هو مركب وجداني وحسي، وسيط طفولي ذو طابع جنوبي سعيد بالحياة، ولا يشغل الديكور فيه إلا مساحة قليلة، وبإمكاننا أن نلتقط هنا وهناك بضعة رسومات بسيطة للمشاهد ـ مثل خليج الجزائر العاصمة تحت المطر، وحمى البناء الذي ينتعش في القصبات والمدن، وواجهات المحلات التي تفوح منها رائحة البوبيت والزيت المقلي، وتتضمن دم الأجناس وصفاً عالياً لمشاهد الجنوب، وربما كانت رواية (سائق العربة والطريق) هي التي تقود إلى الأغواط عن طريق بليدا وميدا، وينتهز الروائي الفرصة ليرسم (عظمة الأفق) الجزائري بخطوطه العريضة، ويتعلق لويس برتروند بوصف السلوك الشعبي حيث تتكون حياة الإنسان العادي من الكدح والكسل الحسي، إنها حياة بيبيت أو الحبيبة، أو الصياد الفتى الجميل الذي يحيا بفضل فتنته ـ قبل أن يتزوج من انجيل ميكو الصغيرة ـ بينما يعيش حوله كل من أمه واخوته ولا يقاسمهم الأنس الذي يحيا فيه، وقنسنت قياغوس المتحمسة، والإيطالية سانتيا لانزارو واليهودية نويمي ومجموعة كاملة من الرجال فهناك الحوذي بالتازار، وسائق العربة اسبان والقبائلي مسعود وانطونين الأعور الذي جاء من بوردو، وباتيست

ساليغرس الذي جاء من مايروكين وآخرون غيرهم، إسبان وإيطاليون وفرنسيون يمتزجون في البوتقة الجزائرية المهاجرة. ويلاحظ لويس برتراند أن المايركيين يشعرون عند عودتهم إلى بلادهم بالاغتراب وهذا دليل على أنهم في سبيلهم إلى فقدان جنسيتهم وتشكيل واحدة أخرى.

تشكل هذه الكتب العالية التلوين والعنيفة والتي اتفق على أنها مجموعة جميلة ودقيقة من الناحية السايكولوجية وهي من الناحية الحية لا تعاب. حتى إننا كنا نتمنى بأن كل المستعمرات قد أوحت بمثل ما أوحت به الجزائر، وبالمقابل نجد أن تونس لم تمنح للغرائبية الأدبية إلا النذر اليسير، وهناك ملاحظات قصيرة كتبها فلوبير عن قرطاجة وبعض الصفحات لموباسان وكتاب لمريم هاري[٨] وهذا المجموع جد ضئيل، وبالرغم من اختلافها الحقيقي عن بعض الأجزاء، إلا أن تونس بقيت بأعين الكتاب غير المتبصرين، جواباً مبسطاً عن حالة الجزائر.

* * *

ويختلف الحال مع المغرب بطبيعة الأمر، إذ لم تكف ومنذ مائة عام عن أن تكون مادة للغرائبية وذلك أولاً بفضل الغموض الذي كان يغلفها حتى العام ١٩٠٦، ومن ثم بفضل صعودها اللامع بإثارة الفضول. فمنذ العام ١٨٣٢ أصدر شارل ديديه (نزهة إلى المغرب) وكان سبقه إلى ذلك ديلاكروا في العام ١٨٣٢ والذي نشرت ملاحظاته ورسائله في العام ١٨٨٠ و١٨٩٣ وقد تميزت رحلة ديديه برقتها نسبة إلى ذلك العصر، وكانت حكايته المقطعة والمفتقرة للألوان وللبيتورسكية واضحة وصريحة، وربما يبقى من الضروري الرجوع إليها، حيث أن المغرب وحسبما تصرح به هذه الملاحظات، قليلة التطور ومتخلفة، بيد أنها متطابقة مع نفسها على العكس من الجزائر ذات السلوك الأكثر عنفاً.

وربما نسينا الروايات مثل ـ الفارس روبيير (١٨٣٨)، ثكلى (١٨٩٣) حيث جعل شارل ديديه أحداثها تدور في طنجة وتطوان، وهو يستعيد بيير لوتي والكتاب الرحالة الذين وصلوا إلى فاس فكان انطباع بيير لوتي عن المغرب التي رحل إليها في العام ١٨٣٩ بأنها (تراجع خضعت له عبر الأزمان السالفة). ففي هذا البلد المغلق (حيث تبقى الحياة اليوم كما كانت عليه قبل ألف عام) يشعر بأن كفن الإسلام القديم يجثم على كتفيه، فمن طنجة يصل إلى فاس في (بلد واسع صامت ووحشي) (حيث يغرق بأكمله في الضياء)، ويفتنه منه جانبه الغامض حيث ينام في خيمة، أو يخب على حصانه عبر الأودية المختلفة بالزهور المتفتحة، ويتأمل بإعجاب مهرجان الفرسان فائق الروعة الذي يجري لدى انتهاء المؤونة عند ضريبة العشاء التي تدفع السفير[٩].

ويذكره المشهد الأخضر المزدهر بمنطقة نورماندي، فيا له (من مخزن غني بالغلال بإمكان المغرب أن يكونه)! هكذا كان يصرخ، بيد أن السلوك يبقى فظاً، فيرى هنا وهناك متمردين وقد رفعوا على الخوازيق أو شنقوا وعلقوا على الرفوش، وعند أبواب المدن كان يرى الرؤوس المقطوعة لقطاع الطرق. ويتوجب الحذر في الليل حيث يسهر الخفراء وهم يدقون على الطبل، ثم يصل بيير لوتي إلى فاس العصية بشوارعها المأتمية وأسوارها المتهدمة، وكم هي كبيرة سعادة بيير لوتي بالإسلام؟[١٠].

حين يرى فرساناً بأزياء فاقعة الألوان، وحدائق رائعة ومياه متدفقة، ثم يشهد الظهور المدهش للسلطان المتلفع بالبياض على جواد أشهب، إنها وثائق غرائبية وبانورامية رائعة للمدينة التي ترقص وسط سيرك من الجبال التي يغلب عليها اللون الوردي الملتهب، بين طيات الظلال المطلقة الزرقة، حيث تحلق اللقالق في ذهب السماء الأخضر،

وحيث سطوح المنازل التي لوحتها الشمس حتى أضحت متفحمة.

فيا لها من رؤى مبهرة ومتنوعة! وأحاسيس مؤثرة، طالما يجد فيها أسطنبول أكثر صرامة وأكثر كمالاً لأنها منيعة عن الأوروبيين! كما أن هنالك (مكناس) بحدائقها الساحرة التي لم تؤثر به كما تؤثر به طنجة التي يرى عند عودته إنجليزيات يلعبن التنس، إنه بيير لوتي المبرور من السحر، والذي يطلق هذه الصرخة السوداوية (آه يا شعاع الشمس، والسكون والغموض وفتنة كل هذا كيف لي أن أعبر عنه) وقد أقدم رحالة آخرون على هذا الأمر ولكن بطريقة أخرى فاندريه شفريون (ابن أخ وتلميذ هيبولت تين) وصف فاس في كتابه (غروب الإسلام ١٩٠٧) أو مراكش في النخيل ١٩٢٠، إنها المغرب قبل الوصاية في كل بدائيتها القروسطية، وبكل بؤسها الملون وتعد ملاحظاته ذات قيمة لا جدال فيها حينما يصف بحزم التراخي القدري للمغاربة، ويحلل حياتهم الجنسية، فيقابلها كازبلانكا بالبدايات الأمريكية، كما يرى في سكان مراكش آخر شعب يمثل الشعوب القديمة، وحين يصف قواد الجنوب مثل ـ الجيلاوي وأنداده ـ يرى فيهم نبلاء على الطريقة الرومانية، لقد وجد نفسه خارج الزمن، لقد وجد نفسه خارج الحضارات المعاصرة.

وقد وصف الأخوان ثارو الرباط في كتاب (الساعات المغربية) ومراكش وآسياد الأطلس وفاس بيرجوازيات الإسلام، وتتمتع دراساتهم وإن كانت سريعة بعض الأحيان وكأنها ريبورتاجات يختلط فيها السرد بالوصف، بالموضوعية الصارمة ولكنها متعاظمة تسمو فوق الرجال وفوق الأشياء، إلا أنها تشكل مجموعة جميلة ولذيذة وساخنة وعالية الألوان ولا تخلو من السخرية المباشرة، وهي ذات رصانة أنيقة[11].

ومنحت تنقيطية (حركة فنية ترسم بالنقط بدلاً من اللون. م) الكتاب

المعتادين على النظر وتسجيل السمات المميزة، إلى المغرب قوة الإيماء غير المألوفة، فقد اهتم الأخوة ثارو على العكس من شفريون وبشكل أكبر بالمظهر البيتورسكي للأماكن والسلوك الأكثر من اهتماماتهم بأعماق نفس القاطن المحلي.

وجعل أميل نوللي في مؤلفه (الفاتح أو رجال الحرب في المغرب) من نفسه مؤرخاً للحياة السلمية، وقد وضع م. سالكرو في (فندق أطلس) أحداث دراماسايكولوجية عند مشارف المغرب. ومهما كانت ميزتهم، فليس هنالك من بينهم من كان باستطاعته أن ينسبنا الثغرات الرائعة لبيير لوتي والرؤى التي قد تكون ذاتية بيد أنها ذات معنى كان حملها من المغرب قبل بيير لوتي، لأن المغرب كانت في سبيلها إلى التلاشي وهذا ما يجعل لوتي متأسفاً.

* * *

لم تجتذب الصحراء إليها سوى الجنود أو المبشرين، فشارل دو فوكو كان جنرالاً من لابيرنيتي، منح مادة خصبة لروايات المغامرة التي كتبها بي بنوا، أو جي بيربه، وكذلك دراسة شفريون الرصينة، وإلى أي بسيشاري فرحلة (السنطور) كانت تحمل شكلاً روائياً لمحمول تاريخي. وهي رحلة عودته، بإيمان حفزه عليه صمت الصحراء، وقد تفضل عليها كتاب (دعوة السلاح) الذي هو أكثر انفعالاً من هذا الكتاب الثقيل نوعاً ما، حيث يكشف بسيشاري عن وصف رحلات وجولات المهاري، ويحثهم على اللغز الصحراوي العظيم المصنوع من فكرة الموت، وعظمة الصمت في هذه الهضاب المووريتانية، حيث يرتل الرجال صلوات الإسلام، بينما يبحث النقيب نوجس عن وسيلة توصله إلى الكمال، لكي يعي بشكل أدق ما يريده. في هذه (الأرض الصوفية، أرض التنسك

والزهد) في تاجونت، وبلاد الأحجار، وفي واحات النخيل في تيجي خجة ـ يشمر بروحه وقد انكمشت أمام كل هذا الاتساع، ثم يعود بسيشاري بألوان أقل مما كانت لدى ج. بيريه وبثيمة ذهنية أكبر، إلى الثيمة التي تشغله، دون انقطاع، وهو وصف حياة المهاري والسراب الذي يسيطر على رؤوسهم، والبارود الذي يهددهم.

(تمر نفحة إلهية على الصحراء) فيتأمل بطله بكلمة باسكال (الصمت الأبدي) وهذا أمر غير متوقع في الغرائبية، أن تكون الصحراء سبباً في التحول الديني، أن وجود بسيشاري في موريتانيا هو نقيض مباشر لوجود بيير لوتي في سيناء، وكان المشهد لا يهمه إلا قليلاً، ولا يهمه سلوك الغرب، بل كان يصغي إلى روحه التي تبحث عن الله[١٢].

الهوامش:

١ ـ انظر تايار، الجزائر، في الأدب الفرنسي ٦٤١

٢ ـ الظلال الساخنة للإسلام، منشورات فاسكل ١٩٠٦

٣ ـ سعادة المغربية ١٩١٩، المقهى المغاني ١٩٢٢، وبنت البشوات ١٩٢٣

٤ ـ كتاب البحر المتوسط ١١١، ١١٤، لاسينا ٧٣

٥ ـ مجلة العالمين، العدد الأول آب ـ ١٥ سبتمبر ١٩٣٦

٦ ـ لاسينا ١٧٥ ـ ١٧٦

٧ ـ يتحدث برتراند عن المهاجرين الذين جاؤوا إلى العاصمة من مختلف بقاع أوروبا.

٨ ـ المصدر السابق ٢١٣، ١٦٢، ٣٦٣، ١٩٤، ٥٧، ٦١

* ـ لسنا بحاجة إلى أن نقول أن أفكار بيير جوردا قد أثبتت عقمها فالجزائر تحررت من الكولنيالية وأعادت هويتها العربية.

٩ ـ فلوبير ملاحظات الرحلة، كوزنار ١٩١٠، ج ٢، ٢٩١، انظر بيير ماتيو

ملاحظات رحلة فلوبير إلى محمية تونس.. موبسان الحياة المشردة ١٨٥، مريم هاري تونس البيضاء، ونلاحظ أن جورج دوهاميل يجعل أحداث الأمير جعفر تدور في تونس ١٩٢٤ كما أن الجزء الخامس من تيبو تدور في تونس مارتن دوغار.

١٠ ـ في المغرب ٣٠٦، ١٠٦، ١٨٧، ١٩٩، ١٩٣، ٢٤٣

١١ ـ نقدات ج لويل، الرحالة الفرنسيون في المغرب ٣٢٧، ويعترف مع ذلك بموضعية الأخوين تارو.

١٢ ـ دعوة للسلاح ٢٤٨، ٢٧٣، ٢٧٤

الفصل الخامس

الرحلة إلى بلاد فارس والبلاد الشرقية

لم يتم التجوال في آسيا في الأحلام وحسب، وإنما زارها الرحالة ورأوها بأم أعينهم. وعاد غوبينو الذي كان يشغل منصب السفير الفرنسي في بلاد فارس إلى باريس ومعه دراسة قيمة عن الأديان في آسيا الوسطى، ولم تكن هذه الدراسة سوى مذكرات لرحلته، مكتوبة بأسلوب بسيط ومباشر كما كانت توثيقية دون اهتمام مبالغ به بالجانب البيتورسكي، تحت عنوان ثلاثة أعوام في آسيا قد صدر في العام (١٨٩٥)، كما كان يحمل معه أيضاً حكايات آسيوية وتعد من الحكايات الممتازة.

لقد اجتاز غوبينو آسيا حتى وصل كردستان، وهو يتبع خطوات القوافل الوئيدة في تطواف منتظم، ولاحظ عدداً من التباينات في العقلية الآسيوية، ولا أخلاقياتهم الواعية نسبياً، وعاين وجود نظام الثأر واستمرارية الأحقاد العائلية وصرامة وصدق عادات الضيافة، وهمجية ورقي السلوكيات، فوصف بدقة الحياة الفارسية، ومحادثات جرت بين الحريم كانت تدور حول الأزياء، كما كان يراها الذين كانوا يقطنون أصفهان إبان ذاك، أو حول الأقاويل التي كانت تدور على ألسنة الناس، وكان للنساء أسماء جميلة مثل «زمرد خانم»، «بلبل خانم»، «لولو خانم» أو «بيبي خانم» ويستعمل الناس لغة مزدانة بالزهور:

«يقال عن المرأة الجميلة إن خصرها غصن الصفصاف، وعندما تطأ أقدامها الأرض تقول لها الأرض شكراً ويغشى عليها من الحب فيهتف أحد العاشقين بها (إني أعاني، ألفظ أنفاسي الأخيرة وأموت،

إني ميت وثم دفنت، ارحمي عبدك».

إن أفضل حكاية في حكايات آسيوية ـ يقال إن ستندال قد أعجب بها ـ هي عبارة عن هجاء للعادات التي تفصح عن ضعف الميل إلى الحرب لدى الفرس، وتحمل عنوان حرب التركمان، فالحياة العسكرية في طهران كانت مليئة بالمفاجآت، ولكي يتمكن الجنود من كسب عيشهم كان عليهم أن يؤدوا بعض المهن، مثل الملازم الأول الذي كان يعمل خادماً في أحد المنازل، والرقيب الذي يعمل في حياكة الصوف. وأن تغيب أحدهم عن جوقة الحراسة، يحمل أحد جيرانهم السلاح بدلاً عنه، غير أن الحرب تنادي!

تلقينا أمر التحرك مباشرة، وهذا ما فعلناه بعد يومين فالحمير هي التي تحمل الأسلحة والحقائب:

«لم يكن هناك أكثر حمقاً من أن تربك نفسك بحمل السلاح بنفسك» ما الفائدة التي تجنى من ذلك؟

إلا أن الحرب تندلع، وقد لاحظ فابريس أن الفوضى في ساحة القتال في حرب واترلو لا يمكن قياسها بتلك التي يضعها غوبينو:

«باع الجنرالات الذخيرة» وقد حول هذا الأمر في بضع صفحات لاذعة إلى لوحات من أتم اللوحات التي تصف تهاون الشرقيين وقذريتهم وهي تنطبق على الفرس وعلى ما ستصبح عليه الصين فيما بعد[1].

من السهولة بمكان أن تقابل هذه اللوحة التهكمية الرقراقة بقصائد الكونت دوليل والتي تغني ذكرى الأشعار التي تصف صيد العقاب «أمير السماء المنغولية» والذي حلت على السهوب غير المتناهية، والتي حدثتنا فيها عن رشاقة ليلى، الفتاة الأكثر جمالاً والأكثر طيباً من زهور أصفهان،

ومن ياسمين الموصل، والتي رسم فيها بواسطة صورة موسيقية أرابسكية وشهوانية، نوم السلطانة.

تحت شبابك الشرفة المغلقة المصنوع من فضة

وعلى رنة الماء فوق الرخام الأصهب

وقد يفضل بعضهم مذكرات الطريق التي كتبها بيير لوتي وهو سيصل إلى أصفهان، على سخرية غوبينو، وعلى صور «قصائد بربرية»، فيالها من صفحات مؤثرة، صعوده الشيق نحو هضاب إيران في الفضاء اللا محدود وفي الصحراء الشاسعة الليلية «خلال بلد» يجهل البخار والمصانع والدخان واللهاث وحديد الخردة... جوانب من العالم لم تصبها كارثة التطور عبر طرق شبه عامودية تتخللها مواقف القوافل «فتضوع منها أشجار البرتقال المزدهرة» فلم تشق حتى الآن طرق ولم تقتحم الحواجز ولم توضع لحد الآن حدود ولا أثر لفعل الإنسان في أي مكان فليعش الفضاء الحر».

وهناك توقفاته الطويلة في شيزار وفي أصفهان (مدينة التركواز واللازورد والمحاطة «بنطاق من الجبال» تشرف عليها قبب المساجد المصنوعة من «الميناء الزرقاء والخضراء»: الورود في كل مكان فأنت تعيش هنا وساوس الورود في ديكور غير مألوف ديكور متهافت وجنائزي) وسط الطريق أجمة الورود، الورود التي تجدها حتى في أيدي المتسولين، وهو يعيش في عش من الورود في قصر من قصور ألف ليلة ويتقاطع مع سيدات الأشباح ويتوقف أمام المساجد (مملكة الأزرق المطلق والمرتفع). حيث اللازورد والتركواز، مجد وتألق الألوان الزرق، بيد أنه لا يرى هناك سوى التهدم والانقراض والتفسخ، والتي أسف عليها عند عودته إلى أوروبا مروراً ب(بحر القصب)، فأتى سريعاً في توليفة مؤثرة على ذكر مدينة

في الأطلال هناك في الأعلى في واحة من الأزهار البيض مدينة من الطين والميناء الزرقاء التي تسقط متناثرة كالبخار تحت أشجار الدلب، التي يعود عمرها إلى ثلاثمائة عام... قصر من الموزاييك والخزف الرائع الذي يتفتت دون اللجوء إلى الضوضاء الغافية للروافد العديدة الصافية وإلى النشيد المستمر للمؤذنين والعصافير، إن أصفهان الضياء والموت تسبح بإكمالها الفضاء الشفاف للقمم.

إننا نجد لوتي في الهند التي حرص على وصفها بأنها (بلد الإنجليز) بعد أن حرم نفسه بانتظام من أحد عناصرها الغرائبية القيمة، لقد ذهب هناك ليسأل هذا البلد المجنون بالعبادات عن أدلة للأيمان والتمني، فصار به الأمر أن لاحظ خواء اللاهوتيين الهندوس وإن لم يجد ما يكفي لإرضاء عقله، فإن الفنان الكامن فيه قد تحرك فلم تدع موجة الأشجار في سيلان والسلام الفردوسي للصباحات وساعات الطريق الوئيدة في الرطوبة الاستوائية أحاسيسه دون تأثر.

ولا يحتوي مؤلفه «الصحراء» في سبيل المثال سوى وصف للمشاهدة، ولكن واعجباً لها من مشاهد، فلم يرسم أحد مطلقاً العظمة الساحقة للعمارة الهندية أفضل منه، إنه عالم من المعابد المتناضدة فوق الحفر في الكاليهارات والأروقة والسلالم، حالات متعبة وخانقة، آلاف من المعابد الواسعة كالكاتدرائيات وتنبثق من بين أشجار النخيل الخضراء، وأماكن مقدسة تشتمل على سبعة أسوار ضخمة يصل طول أبراجها إلى فرسخين فقال:

«إنك لتشعر بالضياع أمام هذه الوفرة الهائلة والساحقة والمرعبة لبشاعة الأصنام بوجوهها العشرين، وقد زار بوندشيري فقال «آه من الكآبة التي تنتابك عند الوصول هناك، أو حيدر آباد الناصعة البيضاء وسط الغبار الأبيض المتطاير والتي تبهجها العمائم الوردية والزئبقية».

ويجتاز لوتي الصحراء من السويس إلى سيناء ومن سيناء إلى أورشليم فتذوق هناك نشوة ورعشة العزلة، فغاص وهو يرتدي ملابس عربية في الوديان الكئيبة أو المدرجات الحزينة منتشياً بالضياء الباهر لمنتصف النهار، أو بروعة ضياء الغسق، روعة مخيفة إنه الإشراق الجيولوجي:

سر وأنت تحلم، سر في طريقك سر دائماً... انظر إلى العزلة التي تمر بعد العزلة، اصغ إلى الصمت ولا تستمع إلى شيء لأن ليس هنالك من حي في أي مكان...

وعند وصوله دير سيناء جاءه الانطباع برجعة أغوار العصور، ذلك الوصول الليلي للسرازين إلى أحد قصور الزمن الغابر في منزل الأشباح هذا كل شيء «هو كان عليه بالأمس وما كان عليه قبل ألف عام»[٢].

ويغادر من جديد يواكبه بعض شيوخ البدو عبر (الصحراء الرتيبة مثل البحر والمتغيرة مثله) مسودة ومحترقة ومرصعة بالواحات التائهة بين الجيرانيت الأحمر حيث يلتقين بالبدو وبالقبائل المرتحلة، ثم وصل إلى خليج العقبة ليعثر من جديد على القنوط الرمادي والوردي «للصحراء» فتنتقل في (امتداد الأرض) وفي (حلقة العدم) ولدى صعوده مرة أخرى إلى الشمال عثر من جديد في ظل الحياة الرعوية على العشب والمطر ـ على العشب المبلل ـ الأرض الموعودة شنعان بطرقها المحفوفة بالتوليب وشقائق النعمان والبروق والقطعان وبالرعاة بملابسهم ذات الألوان البراقة غير أن هناك وسائل الاستعباد الحضارية مثل البريد والتلغراف[٣].

فوصل إلى القدس عن طريق الخليل مدينة الصخور الرمادية حيث شعر بأن الأزمنة الأنجيلية قد صعدت من هاوية، ومر كذلك ببيت لحم حيث ظن أنه رأى لدى المدينة، مريم العذراء وهي تتجلى أمامه، غير أن ثمة أشياء أخرى قالها عن المدينة المقدسة حين صعد على غرار سابقيه إلى مسجد

عمر وسلك طريق الجلجلة ووقف ليتأمل (الجيتسمان) وقضى ليلة هنالك بأكملها، وقد آسف إلى صخب الأديان الذي يدنس الرمس المقدس، وسيذكر بلغة جميلة مأساة عذاب المسيح ثم يواصل تغلغله حتى يصل إلى جرش، ويصل حتى البحر الميت والأردن ويبلغ الساحل بعد عبوره للجليل وهو حزين لأنه لم يعثر على الإيمان أثناء رحلة الحج هذه[٤].

لقد عثر في دمشق على الشرق التركي ذلك الشرق الذي كان يحبه أكثر من أي شيء آخر، فكتب:

«الشعب العربي شعب الحلم الذي يمضي بذاته وبسرعة أمام الاجتياح الهدام والمميت لرجال الغرب».

وهكذا يمكننا أن نجد في ثلاثة مجلدات إحدى الشهادات الأكثر دلالة على فن لوتي، فلا أثر فيها لمحاولة أسلوبية سهلة، ولا أثر للإخراج أو للرمنسة الكلاسيكية ولا للعاطفة، بل إن ما سجله بصدق هو مشاعر الكآبة وخيبة الأمل. لقد كانت كتبه كتباً موضوعية ومتحفظة وبسيطة، مكونة بالأساس من سلسلة من المشاهد المتنوعة جداً، رغم رتابتها، ومتناقصة جداً رغم مشاهد السلوكيات الخالية من الجمل الرنانة، وبأقل قدر ممكن من التقنية وبمفردات بسيطة للغاية إلا أنها وبفضل هذه البساطة تبقى معبرة، ولا يشغل العنصر الإنساني فيها إلا مكاناً صغيراً لا سيما في مؤلفه الصحراء بيد أن رونق الأسلوب والوتيرة المهددة للجملة تثمل القارىء وتنعشه وكم تبدو (رحلة إلى الشرق) مؤلف لامارتين رحلة شاحبة بجوار مذكرات الطريق هذه!

ويشعر لوتي في اسطنبول بأنه في منزل فقد أحب كل ما كان موجوداً في مدينة السلاطين وما حولها، الديكور الذي ضاعف في وصفه على طوال ساعات النهار، وعلى مدى الفصول كان هنالك صيف اسطنبول

الصامتة والهادئة اسطنبول الخريف الكئيبة والغامضة، اسطنبول وقت السحر، أو في الليل وكأننا نراها اليوم فيا لها من لقطات متنوعة.

إنها رسوم محببة، تمثل أطراف المدينة، وشوارعها القديمة الميتة، ومقاهيها المتواضعة، وساحاتها المقفرة، ومساجدها البراقة، مثل مسجد السلطان سليم، والسلطان الفاتح، ومشاهد متحركة، كما في وصف عبور المدينة حتى الوصول إلى بوابة الدرنيوبل أو البانوراما التي رسمت، في واجهات متقابلة أو كوصف اسطنبول من حلال أسكوتاري آسيا، أو في مرتفعات أيوب عبر بستان من النخيل بستان قديم عمره أربعمائة عام.

فهذه ترابينا وقوايقها (زورق طويل يستعمل خاصة في البسفور. م.) ومراكيها والمياه العذبة لأوروبا وآسيا معاً، وقصورها الضائعة بين الأشجار والأزهار، ونجد هنا روعة البسفور تحيط اسكوتاري واسطنبول.

مدينة المنائر والقبب المعظمة مدينة فريدة لا تضاهيها مدينة أخرى في تداعيها الظاهر، مدينة مرسومة بدقة على السماء والدائرة الزرقاء لبحر مرمرة الذي يحجز علينا الأفق[٥].

إنه ديكور رائع حيث نمضي فيه حياة رائعة، يهب نفسه للذي يعرف كيف يتذوقه، وكان لوتي حساساً جداً بإزاء أبهة السلاطين، فيصف تحت التماعات الشمس في (سلاملك) الصلاة العظيمة التي تؤدي، في فناء أحد المساجد ومن خلفه (سكوتاري) رأس السراي القديم وأشجار السرو في الوسط، شخوص المشهد هم السلطان ووجهاء المدينة وخمسة آلاف جندي يصرخون بصوت واحد وقلب واحد «الله أكبر» لقد كان هذا الرسم رسماً مؤثراً، وكم نحن نفهمه وهو يشعر بالكآبة لفكرة عدم معاودة ورؤية هذه المشهد[٦].

وكم نحن نفهمه لتأسفه على رؤية تركيا وهي تحتضر أو لرؤية الشعب

الإغريقي القادم من (فانا) وهو يجتاح المدينة، فكانت رقته تتغلب عليه في كل مكان أثناء نزهاته الوئيدة والمتكررة، خلال بضعة أشهر فتغلغل لوتي طويلاً وبشغف في جاذبية الحياة الإسلامية، وزار كل الأماكن ووصفها بالتفاصيل وبصورة أكثر بتيورسكية لا سيما سكوتاري واسطنبول تحت صرخات المؤذنين أو الساهرين في الليل، وهو يدير خطواته نحو الأماكن الأكثر مجهولية، ويجلس على عتبات المساجد أو تحت أشجار الدلب أو على أرصفة المقاهي، متخذاً لنفسه ملابس تركية، وكان يدخن النارجيلة أمام المسجد القديم في (بروس) وهو بصحبة بعض الرجال الذين يرتدون الطرابيش الحمراء، والذين كانوا يفتتونه بأدبهم الجم، وعلى صياح طيور السمان وأمام المشهد الأكثر بساطة، والأكثر حماسة، كانت هناك بانوراما تتخللها أشجار السرو وأشجار الدلب المتويتان، وعلى خرير الماء وغناء شحرور كان يتذوق المتعة المتواضعة لاحتسائه الشربت المثلج وكان يدرك الحلم الهادىء للمسلمين واعتدال رغبتهم:

«كم هو رفيع وحكيم هذا التصور الذي يحمله هؤلاء الناس المسلمون فهم يعدون أشياء الدنيا، أشياء زائلة ويضعون آمالهم في الله ويصلون ويخلقون لأنفسهم القليل من الحاجات، والقليل جداً من الاحتياجات، ويستمتعون بأكثر قدر من الإيجاز بكل ما هو ذي جمال حقيقي على الأرض مثل الربيع والصباحات الرقراقة والأماسي الذهبية، أو ليست هي أشياء تستحق من الإنسان أن يستمتع بها؟ أن يشتري المرء سترة موشاة تدوم عنده فصولاً، أو أن يحجز مكاناً على مصطبة، تحت ظل الصيف أو أمام شمس الشتاء، ومن ثم عندما تأفل الحياة لا يبقى لدى الإنسان، سوى الإيمان الذي يطرد عنه رعب الموت»(٧).

فما ذهب ليبحث عنه عبثاً لدى البراهمة أو لدى المسيح وجده «لوتي»

هناك، في الإسلام إنه سلالم الروح والحواس وسط ديكور رائع:

«بيد أن اسطنبول أبقت لديه أكثر الانفعالات ندرة، وهو الحواس الكبيرة، حين لم ينزل إلى ضفاف البسفور دون أمل بأن يتذوق هناك المغامرة الرومانسية».

فهو مثل الكثيرين غيره، وصف وجود المرأة التركية في الحريم، ولا أنكر أن الطابع الأدبي كان يغلب على ما يستحضره من صور، إن هذه الصور تبقى صوراً أمينة، وكان هو الذي خدعته النساء المبرآت من السحر، مع أنه أحب فعلاً واحدة منهن، ولنا الحق بأن نعتقد بأنه ـ وإن خدع عاطفياً في مغامرته الثانية، إلا أن وصفه للديكور يبقى وصفاً دقيقاً، فبيت الحريم في العام ١٩٠٠ هو غيره في العام ١٨٣٠.

فلم يزل حتى ذلك الوقت ثمة مرضعات عجائز أثيوبيات، يحملن أسماء غريبة مثل بتلة الورد، وكذلك كان ثمة مربيات معتمدات، ونساء لا يخرجن إلا بحراسة الخصيان، ويمتلكن صالونات من طراز صالونات الملك لويس الرابع عشر، وحجر نوم من طراز حديث، وكن يقرأن كانط ونيتشه وبودلير ومدام دونواي ويستوعبن فانسان داندي ولكن تحت الحراسة على الدوام، ولا يخرجن ليلاً على الإطلاق، وإن كن يرددن أغاني جلوك ويرتدين أزياء شارع لابيه فقد كن مزيجاً غريباً من القديم والحديث حيث يطغى القديم عليهن، لأنهن ما زلن يعاملن كالمحظيات أو كدمى ترف، وكانت هذه المعاملة تغضبهن إلى درجة يتمنين الموت معها، وهذا ما حصل لجنان التي تزوجت دون حب فعانت حتى ماتت كمداً.

وإن لم نكن نعلم أن لوتي وقع ضحية لعملية نصب، لاعتبرنا ما في المبرآت من السحر «شهادة غرائبية جميلة، ومؤثرة للغاية، ولذا فإن ما كتبه كان خاضعاً للشك، ولكن هذا لا يمنع من أن هذا الكتاب يكمل اللوحة

التي ابتدأها في تاهيتي مع الحكاية الحزينة لدارو، وهو جزء من مجموعة لوتي الأكثر كمالاً والأكثر تنوعاً في العالم والتي يملكها الأدب الفارسي في القرن التاسع عشر.

ويمكن أن نميز في هذه المجموعة بعض الثيمات الخاصة بلوتي وبعض الأفكار المهيمنة، والتي تعد بمثابة توليفة من الغرائبية حتى العام ١٨٨٠! وربما كانت الرغبة في حميع التحف[٨] التي خلفها (غونكور) وطورها لوتي فيما بعد تعبر عن رغبة باستعادة الديكورات التي أحبها لدى عودته إلى أوروبا وهي التي دفعته إلى أن يرتب في منزله القديم في (رشفو) صلات عربية أو صينية وقد جلب معه لدى عودته من البيان ثمانية عشر صندوقاً من أشياء للذكرى.

إنه الشعور بالزهو ذلك الذي ينتاب المرء، إلا أنه رأى ما لم يره الآخرون مثل راقصات نورودوم وهن يتحركن على أرصفة دانكور والحياة الحرة الرحبة في الصحراء في سيناء ومن بعلبك إلى تاهيتي حيث شعر هناك بمهابة العزلة والاتساع.

الهوامش:

١ - حكايات آسيوية، بيرن، ١٩١٣، ص ٣٢٦، ٢٣٧، ٢٠٦، ٢٥٦، ٢٨٣، ١٠٨

٢ - المصدر نفسه، ٢١٠، ٢١١، ٢١٦، ٢١٧، وبعد أن ننهي قراءة حكايات آسيوية تأتي إلى قراءة الرسائل التي كتبها غوبينو خلال إقامته في بلاد فارس من الفترة ١٨٥٥ إلى ١٨٥٧ والتي نشرها دوف في مجلة الأدب المحرر في العام ١٩٥٢ الأعداد الأول والثاني ملاحظات العام ١٩٥٥

٣ - نحو أصفهان ٢٩، ٥٠، ١٥٢، ١٨٨، ٢٣٧، ٢٠٧، ٢١٠، ٢٤٨،

٣١٧
٤ ـ الصحراء ص ٥، ٢٥، ٣٣، ٢٢، ٥٤، ٥٥، ٧٠، ٧٣
٥ ـ السابق ص ٥٨، ٧٥، ١٨٨، ٢٠٨، ٢٣٣
٦ ـ المرأون من السحر ص ٢٤٢، ٣٦، ٥٠، ٤٩، ١٥٥، ١٥٨، ١٩٨، ١٤٨، ٢٢١
٧ ـ صور وأشياء أخرى كانت تمر ص ١٤٣
٨ ـ الجليلي ٢٢٥ ـ ٢٢٨

الفهرس

الرحلة إلى الشرق

تكمن أهمية هذا الكتاب في كشفه عن المخزون التصوري للأدباء الفرنسيين في القرنين التاسع عشر والعشرين، ورؤيتهم لشرقنا العربي والإسلامي، كما أنه يقوم بعرض واسع لرحلات هؤلاء الأدباء، وعملية إدراكهم وفهمهم للشرق وبحثهم عن فك غموضه وإبهامه وعاداته وعقلياته، ضمن اللغة والتاريخ والخطابة الغربية وعمليات التماحك الديني.

فضلاً عن ذلك يزودنا الكتاب بمادة إثنوغرافية غزيرة عن حياة وعادات شعبنا العربي وشعوبنا الإسلامية في الشرق في فضاء القرن التاسع عشر، حيث اعتمد المؤلف على أكثر من مئة رحلة ورواية تخص الشرق العربي الإسلامي وقدّم مادة ممتعة كُتبت بأسلوب شيق، وتناولت مساحة جغرافية واسعة من آسيا الصغرى إلى سورية، ومن مصر إلى الجزائر، ومن تونس إلى المغرب.

ولم يعتمد بيير جوردا على أدب الرحلات وحسب إنما على الروايات والقصائد التي تناولت الشرق، والتي شكلت نوعاً من الاستمرارية المنظمة لما يُطلق عليه عادة بالاستشراق.

السعر ١٣٠ ل.س

